2020

30.12.2019

إميل حبيبي
الآثار الكاملة

إميل حبيبي

سرايا بنت الغول

اميل حبيبي

سرايا بنت الغول

خُرَافيّة

سرايا بنت الغول

خُرافيّة

إميل حبيبي
سرايا بنت الغول
خُرّافيّة
(الطبعة الأُولى صدرت عام ١٩٩١)

Emile Habiby
Saraya Bint el-Ghoul
(Saraya, The Ogre's Daughter)

النّاشر: دار عربسك للنشر، حيفا
المحرّرة: سهام داوود
تصميم: شريف واكد

حقوق الطبع وإعادة النشر، كاملاً أو جزئيًا، وبكافة وسائل الإعلام المطبوعة والإلكترونيّة، محفوظة لـ« دار عربسك للنشر »، صاحبة الحقوق الحصريّة والمسجّلة قانونيًا، ولا تُمنح دون اتفاق مُسبق وخطّي معها.

الموزع الرئيس: مكتبة كل شيء – حيفا

ساهم في إصدار هذه الأعمال مؤسسة عبد المحسن القطّان

2006 ©
Arabesque Publishing House
P.O. Box 6370, Haifa 31063

« سـرايـا، يا بـنـت الـغـول،
دَلّـي لـي شـعـرك لأطـول »

(أُسطورة فلسطينية)

خُطبة المؤلف[1]

شجرة الإجاص زُرعت لتطعمنا إجاصًا

اخترت هذا الاسم – «سرايا بنت الغول» – عن أُسطورة فلسطينية قديمة، قد تكون شائعة عربيًا، عن فتاة صغيرة محبة للاستطلاع خطفها الغول في إحدى جولاتها الاستطلاعية اليومية. تبنّاها وأسكنها قصره المشيَّد في أعالي جبل. فذهب ابن عمها يبحث عنها في البراري. وكانت مشهورة بجدائل شعرها الطويلة والتي لم يمسَّها مقصّ. فكان يناديها، وهو يبحث عنها: «سرايا، يا بنت الغول، دلّي لي شعرك لأطول»! فسمعته. فدلّت له جديلة. فتعلَّق بها وصعد عليها. فدسَّت مخدِّرًا في شراب الغول. فنام لا حراك فيه. فانسلت مع ابن عمها وعادت إلى قريتها.

وأمّا بطل روايتي فقد مضى، في طول الرواية، يبحث عن فتاة كان أحبَّها في صباه ثم أشغلته همومه اليومية عنها. فأهملها حتى عادت وظهرت له في شيخوخته. فمن هي «سرايا» هذه ومن هو «الغول»؟ فإنني، كعادتي في رواياتي السابقة، لا أُخطِّط لتداعيات الرواية قبل الشروع في كتابتها، بل أُرخي العِنان للاسترسال الباطني حتى التسيُّب أحيانًا.

ولم أهتد إلى حقيقة «سرايا» هذه إلاّ في الصفحات الأخيرة. فذهلت، كما ذهل شاعر معروف أقرأته المخطوطة، من الحقيقة التي تَكَشّفَتْ أمامي. ولكنّني لم أسمح لنفسي بإخفائها مع أنها جاءَت مناقضة للنهج الذي اخترته لحياتي من حيث اعتقادي أنه من الممكن، ومن المفيد، «حمل بطيختين بيد واحدة»: الانشغال بالسياسة والانشغال بالأدب!

ولمّا كنت «مؤمنًا»، و«المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين»، فقد أخرجتُ «سرايا بنت الغول» من جنس الرواية الطويلة منذ البداية. فما هي، إذن؟ سمَّيتها «خُرّافِيّة». فقد وجدتنا – نحن العرب الفلسطينيين، متخصِّصين وغير متخصِّصين، نستعمل هذا التعبير – «خُرّافِيّة» – لكل فعل مدهش. فإذا كان جرى تفسيره فذلك لاختصار التّكرار في التّفسير. وإذا لم يجر تفسيره فذلك للانتقال إلى تداعياته دون الحاجة إلى تقديم أي تفسير.

والأصل الثلاثي – (خ.ر.ف.) – أصيل في اللغة العربية. وله معانٍ شتّى: «خرف الثمار» جناها. و«المخرفة» هي البستان. و«مخرف» إناء يخترف الثمر فيه. و«الخروف» الذكر من أولاد الضأن ومهر الفرس إلى مضي العام. و«الخارف» حافظ النخل. و«الخريف» ثلاثة أشهر بين القيظ والشتاء لأن الثمار «تخترف» فيه. وأوّل المطر في أول الشتاء.

و« خرفنا » أصابنا ذلك المطر. و« خرافة » رجل من عذره استهوته الجن فكان يحدِّث بما رأى فكذَّبوه وقالوا « حديث خرافة ». وهو حديث مستملح لكنه كذب. و« خرف » فسد عقله وأُولع بأكل « الخرفة ». و« أخرفه » أفسده والنّخل حان له أن يخرف. والشاة ولدت في الخريف. و« أخرف القوم » دخلوا في فصل الخريف. و« خرفه تخريفًا » نسبة إلى « الخرف ». فيجتمع في كل هذه المعاني، في رأيي، معنى واحد على مختلف مشتقَّاته. وهو « جني الثمار ». إذ لا يكون هذا الأمر إلاّ بعد انقضاء الوقت الكافي للنضوج. فإذا تأخَّر الجني « أخرفت الشجرة ». ومن الصعب تحديد « الفترة العصيبة » بين موعد جني الثمار الصحيح وبين « الإخراف ». وقد تكون « خرافيّتي » جاءَت في هذه « الفترة العصيبة ».

ومن الخطإ ترجمة « خُرّافيّة »، على لسان الفلسطيني، بكلمة « بِتاع » الشائعة في مصر. فإن كلمة « بتاع » تشير إلى شيء معلوم ولا تشير إلى حركة أو إلى عملية. ولدينا كلمة خاصّة بنا تقوم مقامها. وهي « الماخود »، أي « المأخوذ » – « هات الماخود وخذ الماخود ». أي « الشيء المُعطى » أو « الشيء المعني ».

ولغتنا « لغة حيّة » على الرغم من « عصور الصمت » المتعاقبة التي فرضت عليها فرضًا من « فوق ». وأشد « الصمت » هو ما

حاول «المستعربون» الأجانب فرضه علينا حين حاولوا إيهامنا بأننا لا نُحسن شيئًا سوى «الحكي». وأما الحقيقة فهي أنهم حاولوا أن يمنعوا عنّا مجرد النُّطق. وقديمًا أدرك شاعرنا[٢] أنه:

«لا خيل عندك تهديها ولا مال

فليُسعد النُّطق إن لم تسعد الحال»

والحقيقة الاجتماعية أبعد غورًا. فإن لم «يسعد النُّطق» لن «تسعد الحال». ولولا ما اكتسبته شعوب أُخرى من حرية التّعبير، وعلى رأسها حرية إعادة النّظر في اليقين، لما استطاع العلم في عصرنا أن يتغلّب على «عُقدة برج بابل» وأن يجرؤ على مجاورة السماء! ليس «التشبُّث بالأُصول» صفة عضوية من صفات شعوبنا ولغتنا، بل هي صفة فُرضت على شعوبنا من خارجها ومن خارج لغتها – فرضها علينا كل أُولئك المعنيين بأن تشعر شعوبنا بالغربة لا في أوطانها فحسب بل، خصوصًا، في هذا «العالم الجديد».

وأود أن أُطمئن أنفسنا وأن أُثير الشكّ في نفوس المطمئنين على ديمومة عجزنا بإبداء الاعتقاد بأننا مؤهلون، حضارة ولغة، لمواكبة حاجات العصر ومكتسبات العلم الجديدة والخارقة. لست عالمًا ولا ناقدًا. ولكنني وجدت نفسي، منذ أدركت أنه من المستحيل «حمل بطيختين في يد واحدة»، قادرًا – حتى وأنا في خريف حياتي – على تعويض ما فاتني من

مكتسبات «فلسفة العلم» فيما كنت غارقًا في أوهام «علم الفلسفة». وما أنا إلا «واحدٌ منهم». ما أستطيعه استطاعه ويستطيعه سواي من أبناء هذه اللغة وبناتها.

وعلى الرغم من إلمامي المحدود جدًا بالأعمال الأدبية العربية الحديثة، ومنها الفلسطينية الحديثة، فإني أرى في انهيار «الأُصولية الدنيوية» انهيارًا سيجرف من أمام مجتمعاتنا كل «الأُصوليات» ويعيدنا إلى أصلنا الواحد: تحمُّل المسؤولية الفردية لا تعليقها لا على «شمّاعة أجنبية» ولا على «شمّاعة السماء».

قديمًا اهتدى شاعرنا الفيلسوف، أبو العلاء المعري، إلى أنه:

«لا إمام سوى العقل
مشيرًا في صبحه والمساء»

وليس سهوًا سمّي «العقل» (الدماغ)، في لغتنا، باسم «القلب» و«الفؤاد». ففي هذه التسمية التعبير الضمني عن مهمّة «أسياد اللغة» – الأُدباء والشعراء. وقد شبَّههم، في هذه الخُرّافيَّة، بشجرة الإجّاص. فهل نقبل من شجرة الإجّاص أن تثمر باذنجانًا وأن تبرِّر فعلتها هذه بالادعاء أنها تود إطعام الفقراء «لحم الفقراء»؟

لقد وُلِدَتْ لإطعامنا إجّاصًا!

(المؤلف)

الفصل الأول

يا يابا !

« الذي كان في البدء والذي سمعناه والذي رأيناه بعيوننا والذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة » .

(رسالة يوحنا الرسول الأولى)

(١)

كانوا في صيف العام ١٩٨٣ . وكان صدى الحرب السادسة[٣] يتردَّد، بعد، في آذانهم تردُّد آهات الحنين في صدورهم إلى صخرة على الشاطئ ابتلعها البحر أو إلى عين ماء على الكرمل نشّفها القهر.

من حرب إلى حرب أُرهفت حاسّة السمع في آذانهم حتى أَتقنوا التمييز بين طنين حرب وطنين حرب أُخرى. أَسْمِعْهُمْ ضجة، أزيزًا أو قصفًا، عويلاً أو نشيدًا أو «مارشًا» موسيقيًا، فيعيِّنوا لك حربها وعام وقوعها المضبوط.

ويكون طنين حرب، أحيانًا، وشوشة باطنية في الأُذن تعقد اللسان عن ترديدها وتحبس أنفاس العقل من هول التفكير بها. ويكون طنين حرب أُخرى، أَحيانًا، أشبه بأصوات غابة موحشة في ليل غاب قمره أو بهسهسة أشباح تتراكض مذعورة في تلك الغابة.

وبعض الطّنين يُسمع بالعين قبل الأُذن أحيانًا.

والآن، الآن فقط، يجد ما رواه من روايات، بعد ١٩٤٨، محاولات لأن يفكّ طلاسم هذا الطنين – من حرب إلى حرب.

قال: إن مذيعًا في «صوت إسرائيل» هو أوّل من هداه إلى طرف الخيط، يوم دوّى صوته أن دويَّ المدافع الإسرائيلية وأنّات

الجرحى العربية اجتمعت في أُذنيه « سمفونية رائعة »[٤]. قيل: إن ذبذبات أصوات الدلافين هي من قصر الموجات بحيث لا تلتقطها سوى آذان الحيوانات العجمية. قال: والحيتان ذات الأفكاك وطواقم الأسنان المتحرِّكة إلى أمام: تنهش وتبلع وتُخلي مكانها للطاقم التالي، في « وليمة رائعة بمصاحبة الأُوركسترا ».

قال: الآن، الآن فقط، أجدني أعزو ما وقع لي من حوادث عجيبة وما ظهر لي من مظاهر مريبة، على شاطئ قرية الزيب المنسوفة المساكن على ساكنيها، إلى طنين حرب لبنان المتميِّز بأنه يسمع بالعينين وبالأُذنين معًا ويرى بالأُذنين وبالعينين معًا.

والزيب قرية فلسطينية ساحلية تقع على الساحل ما بين عكا ورأس الناقورة شمالاً. وتبعد، إلى الشمال عن عكا، ١٤ كيلومترًا. وفي طرفها الشمالي مصب « وادي القرن ». وإلى جنوبها مصب « وادي الصعاليك ». وكانت الذئاب والدببة والأوبار[٥] كثيرة في هذه النواحي ومتكاثرة. ولم يخبرنا المؤرخ الفلسطيني المرحوم مصطفى مراد الدباغ، الذي أخذنا عنه هذه المعلومات، عن أصل هذه التسمية « وادي الصعاليك ». ولمّا كانت هذه النواحي الجبلية، المليئة بالوهاد وبالوديان، مسرحًا لموجات الغزاة التي تلاحقت على بلادنا طول التاريخ المعروف وارتطمت بهذه الوهاد والوديان وبأهلها

ممّن لم يُبق لهم الغزاة ما يملكونه سوى حياتهم، فلا مانع لدي من أن يكونوا ظهروا، في عيون السادة، «صعاليك». ودليلي على ذلك ما كان شاعر الحروب الصليبية وفارسها، أُسامة بن منقذ[٦]، يُطلق على العرب من أهل هذه البلاد من ألقاب ومن أوصاف. فتارة يسمّيهم بـ«الشياطين الرجيمة، من ظفروا به منّا منفردًا قتلوه». وتارة يلعنهم على أنهم «لصوص وحرامية» و«إسماعيلية» و«باطنية» و«فلاحين» و«حلاجين» و«قرامطة». ولو أوغلتُ في بطون مؤلّفاته، تنقيبًا وتقليبًا، لوجدته سمّاهم «صعاليك» – «دوز دوغري». فإذا لم يفعل فعلت والدته، التي ما خَلّتْ وما أبقت فعلة لم تفعلها، حين عاد إلى داره في شيزر بعد وقعة مع «عربان» أغاروا على قلعته. فوجد أُخته جالسة على روشن[٧] يشرف على الوادي وقد ارتدت «خُفّها وإزارها». فسأل الوالدة: «وأُختي– إيش تعمل هنا؟». فقالت: «يا بني، أجلستها على الروشن وجلست بَرًّا منها. إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها ورميتها في الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة»[٨].

واشتهر أهل هذه النواحي، فيما مضى، بغرس الزيتون والبرتقال وخصوصًا «اليوسف أفندي» منه. وأمّا أهل الزيب فاشتهروا، فيما مضى، بصيد الأسماك. وأمّا فيما قبل ما مضى

فقد اشتهروا بصناعة الصباغ الأُرجواني الذي استقطروه من أصداف انتشرت على الساحل ما بين صيدا وجنوب الكرمل. وأجودها، لهذه الصناعة القديمة، ما كان أهل الزيب يجمعونه من أعماق البحر أمامهم في أعماق تبلغ ٢٥ قامة أو أكثر أو أقل.

« ولما كانت عملية استخراج بضع نقاط من سائل الأُرجوان من أصدافه، وتنقيته وتقطيره، عمليَّة شاقَّة مرهقة لذا كانت أثمانه غالية جدًا. وقد قيل إن ثمن ثوب مصبوغ بالأُرجوان، في القرن الأول للميلاد، ما يعادل ألفَيْ دولار في عملتنا الحالية »[٩].

قلت: فلا يعقل أن لا يكون « عيارون »[١٠] من « العربان » قد دأبوا، فيما مضى، على التسلُّل إلى شواطئ البحر في تلك النواحي وغاصوا عميقًا في البحر واستخرجوا هذا الصدف وباعوه بلا رقيب، خصوصًا في مصب ذلك الوادي. وهم « الصعاليك » وسُمِّي الوادي باسمهم.

والزيب قرية قديمة قيل إن العرب الكنعانيين هم الذين أسَّسوها. وكانت، في القرون الوسيطة، محطة للسائحين في طريقهم من عكا إلى صور. وأقام فيها الرحالة الأندلسي، ابن جبير[١١]، محطة في طريقه من عكا إلى صور. ولم تسقط في أيدي بني إسرائيل إلاّ بعد شهر من سقوط عكا في

أيديهم. وسقطت مدينة عكا في ١٨/٥/١٩٤٨. فدمَّروا الزيب على أهلها ونجا منهم إلى سوريا من كان، ساعتها، في حقله. فلم يدفن تحت الردم. ولم يبق من بيوتها سوى بيت المختار القائم على هضبة مشرفة على البحر. وقُيِّض لبيت المختار من بعده، لأمر لا يعلمه سوى علاَّم الغيوب، ابن عم لنا «متصعلك» ومن أصل فارسي. فما أدراك أن يكون - في أصله وفصله - «إسماعيليًا متهوِّدًا»؟ حَوّلَ بيت المختار إلى متحف جمع فيه آثار الزيب العربية، من أحجار الرحى حتى الجماجم. فلمّا أرادوا الاستيلاء عليه وضمِّه إلى الحديقة العامة، التي أقاموها، سيَّج المنطقة من جميع جهاتها وأعلنها «دولة الزيب الحرَّة المستقلة» وعمَّم على زوارها «جوازات سفر» صورية مهرها بتوقيعه وتقاضى عنها رسومًا معلومة. وجعلها منامة للصعاليك الشبَّان والشابَّات المعدمين، الوافدين من أُوروبا حاملين خيامهم على ظهورهم ينصبونها على أرضها مقابل خدمات معيَّنة يؤدُّونها في صيانة «أرض الدولة» وما فيها من أشجار مثمرة أهمّها تينات عربية أبت الرحيل، تطعم ثمرًا عسلي المذاق، من غزالي وخرتماني. وكانوا يقطفونه عن أغصانه ويدسُّونه في أفواههم غير مبالين بما فيه من دود. قلت: ومن دود هذا التّين الغزالي والخرتماني، الأحلى من العسل، جاء مثلنا السائر: «دوده من عوده». والله أعلم.

ولمّا كان الصعلوك للصعلوك أخًا ومعينًا، وكانوا في هواية صيد السمك في ذلك الزمان أشبه بالصعاليك لباسًا وعلوّ همَّة، فقد تآخوا مع ابن عمهم هذا وآخاهم. فاختاروا شاطئ مملكته مكانًا اعتزلوا فيه عن سواهم من الصيادين في الليالي غير المقمرة. وكانوا يبيتون في كنف دولته أحيانًا – يتعشَّون سمكًا طازجًا ويفطرون سمكًا طازجًا ويعودون إلى أهلهم سالمين غانمين. وكانوا يعودون سالمين لا غير أحيانًا. وفي الحالتين كان «سيادة الرئيس» يودِّعهم بمثل ما كان يستقبلهم به من بشاشة ومن حنوّ أشبه بحنوِّه على ما لديه، في متحفه، من أحجار رحى ومن جماجم – حذوك النّعل بالنّعل.

قال: حتى جاءَت تلك الليلة المهولة من ليالي نهاية الصيف غير المقمرة من العام ١٩٨٣.

(٢)

قال: لم أُفاجأ حين فاجأني ظلّه الباهت مضطربًا على سطح البحر المضطرب أمامي. فقد كانت ترامت إلى مسمعي وشوشات غامضة عن «شيء» يظهر لهواة الصيد الليلي على شاطئ الزيب – امتدادًا من خرائب الزيب حتى رأس الناقورة شمالاً.

كنتُ جالسًا على صخرتي المختارة، الضاربة في عُرض البحر أبعد من سواها عن شاطئ الزيب وأشد عُلُوًّا من سواها من صخور الشاطئ: صخرة ذات عنق مشرئب نحو البحر من تحتها ونحو السماء من فوقها حتى كأنّها، والله، ذلك الروشن الذي سبق ذكره في قلعة شيزر. والبحر من تحتي «عُربانًا» يرفعون عقائرهم بالموج استغاثة ولا من مغيث ولا من مجير.

ومع علمي بأنْ «لو فيها خير ما رماها الطير» وقع اختياري عليها فأتّقي مدافعة زملائي على هذا الموقع. البحر، أمامها، شحيح السمك. فلا يقربها سمّاك جاد يعلم بأن البحر من تحتها لا يجود بالسمك. فتركوها لأمثالي. وأمثالي من الهواة، قليل. ثم إنها موقع يأتمنه أمثالي ممَّن لم تعد أعمارهم مأمونة الجانب. وأنا وحيد، بين زملائي الصيادين، من هذا الجانب. وكانت مأمونة الجانب من حيث عُلُوّها عن زبد الموج، مهما

يَطْغَ ويزمجر ويعربد، ومن حيث مكانها الصخري السالك من عند رمل الشاطئ، في الجزر وفي المدّ وفي انبساط البحر وفي موجات غضبه العمياء.

لم أجد، منذ صغري، وسيلة للترويح عن أعصابي، التي وُلِدَت مشدودة، سوى هواية صيد السمك. فأدمنت عليها إدمان الراهب على النبيذ المخزون في دنان ديره. ويحسبني معارفي مازحًا، وما أنا بمازح، حين أقول لهم إن مهنتي هي صيد السمك وأما الأدب فهو هوايتي المحببة.

وأما السياسة؟

قد قيل: «لا يستطيع المرء أن يحمل بطيختين في يد واحدة». فكيف بهذه البطيخة الثالثة؟! قيل: «حَمّلوه عنزة فضرط. قال: شيلوا عَلَيّ الثانية»!

ولد على شاطئ بحر حيفا – حين كان وادي النسناس، حيث وُلد وسوف يبعث حيًّا، أحد أودية الكرمل التي كانت مياهها تصب في البحر مباشرة. فتعلَّم صيد السمك مثلما تعلَّم السير على قدميه منتصب القامة ومثلما تعلم التَّحليق، العوم على الماء، سباحة رباحة. فلما أبعدوا البحر عنهم، ثم ألقت بهم الكارثة في القاع حتى لا وقت لديهم سوى حبس أنفاسهم – قلت: «هل يهوى الغريق صيد السمك؟» – حسبوا مشي الواحد منهم على قدميه الاثنتين معجزة أشد

إزعاجًا لأبناء عمومتهم من مشي المسيح على سطح البحيرة[١٢]، ناهيك عن تطاول الواحد منهم على صيد السمك!

وكانوا، في الغالب، يعودون بأربع سمكات في مقتبل العمر، أو أكثر أو أقل قسمة ونصيبًا، ويقلونها بزيت الزيتون الراماوي[١٣] ويعزمون على الجيران مكرِّرين معجزة «إطعام الجياع»[١٤]. وحرفتهم الإكثار من زيت الزيتون في المقلى. ورأوا، في هاتين المعجزتين، غاية الصمود والتصدي. فإذا قيِّض لأحدهم أن يقف على منبر بقدميه الاثنتين فذلك هو «البلاغ رقم واحد». فإذا اصطاد حوتًا يزن كيلوغرامًا فما فوق فهو «البلاغ رقم اثنين»!

فلما اشتدَّ العَنَت عليهم وآذنت ببينها حوباء، هربوا من رماد حيفا وسكنها إلى السكن في مدينة الناصرة – بلد المسيح وعرائش البطيخ. وينطق به أولاد عمِّنا، معاندة، على أنه «البطيح». وإذا قلنا «حاء» قالوا «خاء». وإن قلنا «خاء» قالوا «حاء» – ولولا الجد، وجد الجد، لأقنعوا أوروبا بأنه ما من سبب للخلاف بيننا سوى هذه الحرب الضروس بين «الحاء» و«الخاء».

فلاحت لهم صفحة البحيرة الساكنة التي كانت، بعد، مسكونة بالسَّمك الكثير وشطآنها بكرًا على عهدها منذ أن

ورد إلى مائها ملك الغاب الذي كان زئيره يُسمع ما بين الفرات والنيل[١٥] فانقسم الآن[١٦] إلى هِزَبْرين اثنين – هِزَبْرٍ على الفرات وهِزَبْرٍ على النيل، هذا يهزبر على ذاك وذاك يهزبر على هذا. وكلاهما يهزبر علينا. وقانا الله شر الهزبرة والغطبرة وكل هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ.

قال: فجلسنا على صخورها العذراء جلسة نواطير مصر[١٧] فلما فنيت العناقيد ولم يبشموا – أخذوا الماء واسترجعوا المجاري – عُدنا إلى الأُصول، إلى البحر وإلى ما بقي من شواطئه بكرًا.

كان الظلام يحبو حبوته الأُولى، متردِّدًا بين السماء والأرض في ليلة من ليالي أواخر الصيف امتزج ظلامها بضبابها، المثقل بالماء، حتى اختلط الأمر بينهما واختفت الشمس بلا غروب وأصبحت السماء بحرًا والبحر سماء ولم تعد العين تميِّز سطح البحر عمَّا هو فوقه من هواء. ضباب ثقيل يخنق الأبصار والأنفاس كأنَّنا عدنا إلى بدء الخليقة وكأن ذلك الدُّخان من نَفَس الماء حين تنفَّس فجعلها سماء واحدة.

ويكون، أمام هذه الظواهر المائية الطبيعية، مبهور النَفَس والبصر، مؤهَّلاً لاستقبال مختلف الخواطر غير الطبيعية: عن شبح كانترڤيل ونواح مرتفعات وذرينج، وعن جنِّيات كنّ يهبطن عليهم محمولات على قطرات الندى المتساقط فوق

مقاثي البطيخ أو كروم الدوالي في ليالي العطلة الصيفية، يوم كانوا لا ينامون ولا يغفون بل يتغافلون.

قال: وعن عرائس أحَطْنَ بصخرة فوق الكرمل كنَّا نجلس في ظلها نتشاطر، سرايا وأنا، تفاحة من «تفَّاحات الجن». نقف ونرقص مع هذه العرائس دائرين حول الصخرة وخائضين في ماء العين تحتها. وكنا نتراشق ماءَها ونتشاطر خريرها ونلفّ وندور.

سرايا؟

قال إن هذه الخواطر جاءَته وهو جالس فوق صخرته على شاطئ الزيب.

وبعد أُسبوع من ظهور تلك الظواهر العجيبة قعد ودوّن ما علق في مخيلته من تلك الظواهر وممّا نطقت به تلك الظواهر من كلام أشبه بدقَّات قلوب الأجنَّة وهي في الأرحام.

وأقسم لي الأيمان المغلظة أنه أخفى ما دوّنه، في نهاية العام ١٩٨٣، حتى يومنا هذا.

وقال: كان الحادث مفتاحًا أشبه بمفتاح الحياة المصري القديم. قلت: كان اسمه مفتاح النيل. فلنُسمِّ مفتاحك بمفتاح وادي القرن.

قال: أو معولاً سحريًا، أشبه بمصباح علاء الدين، رحت أنبش به جبال النسيان محاولاً، قدر طاقتي، الإيغال في

أغوار الذاكرة.

كانت ليلته الدخانية، تلك، ليلة من ليالي الصيف – الأوّل الذي جاء بعد صيف عين الحلوة فجفَّت مآقيها. وصبرا وشاتيلا فجفَّت مقاثيها.

وحرث الأرض ما بين الصبر والقبر وأحرق الزرع وأضمر الضرع واقتلع الشتيلة وأردى الشاتل قتيلاً [١٨].

كانت انتشرت، في أنحاء الدولة التي لا تتوقَّف عن الانتشار، أقاويل عن أخطار «تسلُّل» جديد يقوم به «المتسلِّلون» القدامى. وكانوا عادوا إلى رؤية الأشباح، الهائمة في أزقتهم وحواريهم، التي كانت ظهرت لهم في عام النكبة الثانية[١٩]. فلأمر ما ظل بعضهم فوق الأرض حيًّا. أو تكون الأجداث، التي تركت فوق الأرض، قد بُعثت حيَّة. ومن الشواهد على هذا الأمر أنهم كانوا، في عودتهم عبر رأس الناقورة، خُرسًا صمًّا لا ينطقون ولا يسمعون. فإذا سألتهم عمّا أصابهم، «هناك»، تلفّتوا يَمنة ويَسرة ومضوا في صمتهم. وإذا ألقيت التحيَّة عليهم مضوا في سبيلهم.

وتَقَوّلوا عليهم بأقاويل شتَّى. وادَّعوا عليهم بأنهم يدخلون، عبر رأس الناقورة، بإذن إقامة لأُسبوع فيختفون ولا يرجعون.

فكان مؤهلاً، إذن، وهو جالس فوق صخرته في تلك الليلة الدخانية، لاستقبال أحبّائه.

قال: أحجمتُ عن مساءَلة زملائي الصيادين عن حقيقة هذا «الشيء» الذي توشوشوا بخبره – هل التقوه فعلاً؟ – مخافة أن يكون الأمر مزحة أُخرى من مزحاتهم التي تعودتها منهم عن طيب خاطر متبادل. كنت عودتهم على كسلي الذهني عن استيعاب تجاربهم في أُصول الصيد وفي إرهاف الحسّ في لمس الخيط المشدود وفي إرخائه ثم في شدّه وفي التعرُّف على أصناف السمك وعلى أسمائها وعلى ما يصلح لها من طُعم ومن زمن ومن استرخاء ومن توتُّر ومن إرسال خيط ومن شدّه. فكانوا يوقعونني في مطبَّات كنت أخرج منها متساذجًا ومبرِّرًا خيبتي بسذاجتي وقد أفلتت السمكة من صنارتي أو استغفلتني فاحتمت بصخرة باطنية اشتبكت بها صنارتي. فأدعي أن الغنائم لا تهمُّني ولا أبغي من وراء هذه الرياضة سوى ترويض ذهني على الهرب من همِّ التفكير أو من التفكير بالهمّ.

كانوا يستطيبون شروده فيختلقون أسماء مضحكة لأسماك مضحكة الأسماء في الأصل. فإذا وقعت في أيديهم سمكة «سلطان إبراهيم» – وهو أمر نادر الوقوع على الشاطئ – أكبر حجمًا من أخواتها، وأبدى استغرابه – ادّعوا بأن اسمها «الحاج إبراهيم». وكان استطاب تظاهره بالسذاجة فأمعن فيها وأمعنوا.

قال: وشدَّني الخيط، فجأة، فسحبته. فانسحب نحوي وفي طرفه البحري ثقل محسوس. فمضيت ألفُّ الخيط وأنا مشدود إليه مخافة أن تفلت السمكة الكبيرة من صنارتي أو أن تقطع الخيط. وكنت متعوِّدًا على أن أُدلّي قدميّ على حافة الصخرة وأنا في مثل هذه الحادثة النادرة. وفي وسط الطريق البحري إلى موقعي أحسَسْتُ بالخيط يتراخى وبالسمكة الكبيرة تندفع نحوي بسرعة أشدّ سرعة من لفّي للخيط. فرميت قصبة اللف جانبًا وأخذتُ أطوي الخيط طيًّا. وكانت سمكتي في الماء تحت قدميّ مباشرة حين أحسست بحيوان قضمها قضمًا. فرفعتُ الخيط بلا أي ثقل. وانفرج البحر من تحتي عن سمكة قرش كبيرة في طول متر أو مترين قَفَزَتْ نحو قدميّ فاغرة فاها المسنن. إلا أن عُلُوّ الصخرة عن الماء أنقذني. فعلمت أن سمكة القرش حاولت الاهتداء عليّ وعلى قَدَمَيّ بالخيط الذي كنت أرسلته بعيدًا في عُرض البحر. وإذا بي الفريسة وأنا حاسب نفسي المفترس.

وزاد في قنوطي تعقُّد خيطي واشتباكه بقصبة الصيد الملقاة إلى جانبي. وكنت قد رفعت قدميّ المتدلِّيتين وجلست القرفصاء على الصخرة فاشتبك الخيط بقدمي وأصبحت أسير الخيط مرتبطًا بالقصبة ارتباط التائه في الصحراء بقرينته[٢٠]. فأخذت أبحث عن طرف الخيط المربوط بالصنارة. فتحسَّست

رأس السمكة التي كنت اصطدتها وبقية من الجزء الأعلى من جسمها.

وشطّ خيالي، بعيدًا عن هذا الشط وما أنا فيه من غربة مهولة، إلى تغريبة في شطآن بعيدة وقع لي فيها من الهول ما هو قريب الشبه بهذا الهول.

وذلك على شاطئ البحر الأسود أمام شبه جزيرة القرم. خرجت مع طلوع الفجر في قارب صغير أُحركه بمجذافين سعيًا وراء صيد السمك المنتشر في هذا البحر.

وهو من النوع الذي نسمِّيه في بلادنا باسم «الغُبَّس». وغلب عليه اسم «بنانا» منذ انضمام اليهود المغاربة إلينا. و«بنانا» هو الموز. وهو، والحقُّ يقال، أشبه بإصبع الموز. إلا أن الموجود منه في البحر الأسود أطول وأدسم من نظيره في بحرنا الأبيض وأشد نهمًا. ويسمِّيه الروس باسم «ستافريدا» والبلغار باسم «سافريد». وهو سريع الوقوع في براثن الصيادين. وحكاية صيده حكاية عجيبة:

يخرج الصيادون بالقوارب إلى عُرض البحر الأسود مبتعدين عن الشاطئ كيلومترًا أو أقل. فيرسلون خيوطهم وقد ربطوا عشر صنَّارات في الخيط الواحد، كل صنارة مشبوكة في ريشة صغيرة من ريش الدجاج أو بخرزات دقيقة متعدِّدة الألوان. وتستطيع أن تشتري هذه العدَّة جاهزة في دكان لبيع أدوات

الصيد. ويكونون ربطوا، في آخر الخيط، رصاصة ذات ثقل مناسب تشد الخيط إلى القاع.

حتى إذا شعرت بأن الرصاصة لامست قاع البحر رفعت الخيط قامة أو قامتين. ثم أرخيته مرَّة أُخرى. وتظل على هذه الحال، من مدّ ومن شدّ، حتى تحسّ بخيطك يهتز اهتزازًا شديدًا وفي مختلف الاتجاهات كأنه وتر عود ينقره العوّاد بريشته نقرًا مردّدًا. فيكون ذلك السمك قد هجم على الريش الملوّن أو الخرز الملوّن فعلق بالصنّارات. فترفع على مهلك. وقد تغنم، في الرمية الواحدة، عشر سمكات دفعة واحدة.

وتعود إلى فندقك، قبل موعد الفطور، وقد امتلأ دلوُك بهذا السّمك اللذيذ الطعم. وقد تعود بأكثر من مئة سمكة في طلعة واحدة. ويُعِدُّونه لك كما تشاء وتهوى. وأطيبه طعمًا المدخَّن. ويدخِّنونه، على شطآن شبه جزيرة القرم، على نار أعشاب برية ذات رائحة شذية. ودخّنته في بلادي على نار شجر الغار. فخرج طعمه أشبه بالسردين المعلّب.

قال: كانوا علّموني أن أهتدي إلى مواقع احتشاده بمراقبة طيور النورس في وجهة طيرانها. فهي تبحث عنه من عليائها ثم تنقض عليه انقضاض الصاعقة. فتطلعت إلى السماء أُراقب النوارس البيضاء في طيرانها. ووجَّهتُ قاربي في ذلك الاتجاه.

كنتُ، في فجر ذلك اليوم، فوق قاربي في عُرض البحر الأسود أمام مدينة سيباستوپول ذات الأمجاد المفرطة. وكان الله وفَّقني بصيد وفير من هذا السّمك الصغير. فما تمهَّلت حتى أُلقيه في الدلو الذي أعددته لجمعه فيه. بل ألقيته في بطن القارب جزافًا لكثرة ما اصطدت منه.

وتنبَّهت إلى النوارس البيضاء تحوم من فوقي ثم تتجه نحو الجنوب. فسيّرْتُ قاربي نحو الجنوب وأرسلت خيطي ثم رفعته بلا طائل. ونظرت إلى النوارس فإذا هي تعود وتحلِّق فوق قاربي وتتَّجه بعيداً في عُرض البحر. فلحقتُ بها وأرسلتُ خيطي ثم رفعتُه بلا طائل أيضًا.

وإذا بالنوارس تنقضُّ من عليائها عَلَيّ وعلى السّمك المتناثر في حوض قاربي. بدأ أحدها بالانقضاض. طير كبير. غافلني وانقض على بطن القارب. التقط سمكة بين منقاريه وفرَّ هاربًا. فابتسمتُ إعجابًا بفطنته. فانقضَّ على أسماكي طائران اثنان من النوارس في غارة واحدة. فأدركت أنني واقع، لا محالة، في ورطة أشدّ مدعاة إلى الإحباط من الورطة التي وقع فيها الصياد العجوز في رواية أرنست همنچواي[٢١]. وما إن لوّحْتُ لهما بأحد المجذافين، مهدِّدًا متوعِّدًا، حتى انقض عليَّ سرب من النوارس دفعة واحدة. فرحت أصرخ وأُزمجر وأُلوّح بالمجذافين معًا ولا من سميع ولا من مجيب.

كان، في زمانه، خطيبًا كليمًا. فقلت له: فلماذا لم تُلقِ على مسامع الطير خطابًا؟ قال: كنت جمعتها حولي!

وقال: كان السرب ينقض على أسماكي وهو يصدر من مناقيره أصواتًا أشبه بالزغاريد. ثم يفرّ طائرًا بغنائمه في صمت موحش امتزج بصمت البحر في ساعة الفجر في هذه النواحي. فيأتي بعده سرب آخر، مزغردًا، ينقضّ ثم ينقضّ. وكان بعض الطير يلقي السمكة التي التقطها بمنقاريه، إما خوفًا من أن تصيبه ضربة من مجذافي وإما أنَفَةً من صغر حجمها. فقد قيل: «لو كان فيها خير ما رماها الطير». وكان السّمك الملقى من مناقيرها يتساقط فوق رأسي أو على سطح الماء ميتًا.

فاكتفيت من الغنيمة بالإياب.

وفيما استطاع شيخ همنچواي أن يعود إلى الشاطئ بهيكل عظمي، هو ما أبقاه له سمك القرش من الحوت العظيم الذي اصطاده، فقد عاد صاحبنا إلى البرّ في ذلك الصباح خالي الوفاض وخالي البطن – بطن القارب – لا أسماك ولا عظام أسماك. فقد أمعنت النوارس في ملاحقته حتى ألقى إليها بسمكة وحيدة وجدها عالقة في شقٍّ بين خشبتين من أخشاب بطن القارب. فحَلّت النوارس عنه. فتمدَّد فوق بطن القارب منهوك القوى ومبهور الأنفاس.

وفيما هو على هذه الحال سمع نعيق غربان صادرًا من فوقه.

قال: ففتحت إحدى عينيّ تحسُّبًا من عاقبة الغفلة وأبقيت الأُخرى مغمضة تحسُّبًا من عاقبة اليقظة!

وشاهد أسرابًا من الغربان السوداء، وهي كثيرة في تلك الأصقاع، تحوم فوقه وتهم بالانقضاض عليه حاسبة أن ما تحتها هو جثّة هامدة.

جاء دور الغربان بعد أن أتمَّت النوارس نقمتها عليه. فما هو دوري؟

قال: تعودت على اليأس يستولي عَلَيّ حين أجد ما بين يديّ من عمل أدبي عاقرًا أو أبلغ به نهاية سرداب فإذا نهايته منغلقة بحجر صُوّاني ضخم عصيّ على الاختراق. فأعلم أن لا مناص من أن أعود أدراجي وأحفر نفقًا آخر في موقع آخر. فأكسل عن هذا الجهد المضني والمكرر، المرَّة تلو المرَّة.

إلا حين لا يبقى لي من منجاة إلا الاستمرار في الحفر. فيكون حالي أشبه بحال جماعة من الأسرى لا أمل لهم في الحياة ما داموا في الأسر قابعين. حفروا نفقًا تحت الأرض وخطَّطوا أن تأتي نهايته خارج أسوار المعتقل. فلمَّا بلغوا فيه مسافة بعيدة، بحسب ما خططوا، اصطدمت معاولهم بصخر عظيم لا قِبَلَ لها على اختراقه.

ومنهم من حفر نفقًا وبلغ إلى نهايته وخرج إلى الفضاء فإذا هذا الفضاء موجود داخل أرض المعتقل وأسلاكه الشائكة

وأبراجه المشحونة بالرشّاشات وبعساكر الرشّاشات. فهل يكفُّون عن هذه المحاولة، المرّة تلو المرّة، ويبأسون في حين لا منجاة لهم من الموت سوى هذا النفق؟

قال: كانت حالة الاختناق هذه لا تأتيني، في أغلب الأحيان، إلاّ وأنا قاعد وراء مكتبي أُشعل السيجارة من عقب السيجارة وكل النوافذ مغلق اتّقاء لبرد في شتاء.

إلاّ في هذه المرّة: فوق صخرتي وفي ليلة غير مقمرة من ليالي الصيف والضباب يلفُّني ودُوار البحر.

(٣)

كنت سارحًا بخواطري، هذه السرحة، وكنت أُعالج قرينتي القصبة حتى أفكّها عنّي حين فاجأني ذلك الظل الباهت مضطربًا على سطح البحر المضطرب أمامي. حسبته، للوهلة الأُولى، ظل سمكة القرش تسعى في الماء تحته قائلة لي: خذني! وهي التي تسعى لتأخذني.

لولا همهمة صدرت عن الظل قادمة من ورائي.

وكانت همهمة أُنثوية.

فأدرتُ رأسي.

كان دُوار البحر قد تملَّكني. وكانت أسماك القرش تبدو لي آتية من البحر ومن البرِّ معًا. فوجدتني أُصعِّد النظر في جسم نحيل وضامر خلته لصَبِيّة في مقتبل العمر. وقفت الصَّبِيَّة ما بيني وبين هضبة صخرية قائمة وراء رمل الشاطئ إلى الشرق كان الجيش قد جعل منها نقطة مراقبة زوَّدها بكشّاف كهربائي يجمع الضوء في سيف من النور المكثَّف يخترق ظلمات البحر وشطآنه في عمود متحرِّك في نصف دائرة ذات قطر لا نهاية مرئيَّة له.

كان عمود الضوء مصوّبًا، في تلك اللحظة، في الاتجاه البعيد عنا. فَخِلْتُ جسم الصبية متسربلاً بثوب فضفاض

شفَّاف على جسم عاطل سوى ما منحته الخليقة من قلائد ومن صناعة فطرية متقنة.

خلت أنها نادتني بـ« يا يابا »!

فبحلقت في الظُّلمة من ورائي. فخلت أنني أرى وجه فتاة قمحية البشرة كستنائية الشَّعر على قامة أشبه بعود الخيزران أنذرتني عيناها العسليَّتان بأنها في عمر ابنتي.

وكانت تخطو فوق رمل الشاطئ نحوي في مشية المسحور أو الذي يمشي في نومه.

– « يابا »! مرة أُخرى.

فحاولت أن أهرب. عالجت ساقيّ أن تقوما فإذا هما والصخرة صخرة. فعالجت فمي أن ينطق فإذا هو منكتم على دمع.

– « البلاد اشتاقت لأهلها، يا عبد الله. فهل نسيتنا؟ »

– أنساها؟

ولكن، هل من الممكن أن ألقاها بعد هذا العمر الطويل وهل تبقى صبيَّة بعد هذا العمر الطويل؟

– « عبد الله، يا عبد الله »!

خنقتني الظُّلمة. أخرسني الظُّلم. رفعت بصري نحو هضبة المراقبة. لم يبق سوى الكشَّاف الكهربائي ما يبدِّد ظنوني. أمّا رفاقي الصيادون فقد نزحوا عن الشاطئ منذ أن أطبق

الضباب عليه. فحين يطبق الضباب يهجع السمك في جوف البحر لسبب غير معلوم. أو نكون قد عدنا إلى ما قبل الخليقة. حين «كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرفّ على وجه المياه»[٢٢]. فلا يكون السّمك وكل ما يسبح في الماء وكل ما يدبُّ على الأرض وكل ما يطير في الفضاء قد خلق بعد.

يدرك السّمك أنْ لم يَحِنْ موعد ظهوره على خشبة المسرح. فكيف استبق موعده؟!

كان زملاؤه مشغولين في إعداد الفحم والحطب لشواء اللحم والسّمك في رقعة من «دولة الزيب» أعدَّها ابن عمهم لهذا الغرض فيستعملونها ويستعملها غيرهم من الصعاليك القادمين إليها من وراء بحر الظلمات. وكانوا أوّل من أدخل اللحم المشوي إلى أفواه أولاد عمِّهم من الأشكناز وأوّل من أدخل رائحته الشذية في أُنوفهم الصقلبية[٢٣]. وما كانوا، من قبلهم، يعرفون فضل الفحم الخشبي على الأنابيب الصغيرة المجمرة بحرارة الكهرباء. ويسمُّونه «چريل». فلمّا استفتحوا بالمدنية الأمريكية صاروا يسمُّون شواءَه باسم «باربا كيو». ولم نطلب منهم تغيير هذا الاسم العجيب، مقابل ما علَّمناهم من شواء على الفحم الخشبي. بل لم نطلب منهم، جزاء أو شكوراً، سوى أن يعتبرونا من آكلي اللحم المشوي لا من

اللحوم التي تصلح للشواء. فمن علّمهم أن يستعيضوا عن اسم «باربـاكيو» باسم «منقل»؟ فقد وجدناهم، دون سابق إنذار، يسمُّون شواء اللحم على الفحم بهذا الاسم ويلفظون القاف فيه كما يلفظ المصريون جيمهم أو كما يلفظها آباؤنا البدو. وكانوا يستضيفون، على مائدتهم الحجرية في «مملكة الزيب»، زملاء لهم صيادي سمك من اليهود المغاربة. وكانوا يتعاونون على البرِّ والتَّقوى في هذا المضمار، لا فضل لصيّاد عربي على صيّاد مغربي إلا بالطُّعم. يتبادلون الخبرة والخيطان والصنانير. ويأبى الواحد منهم، ومنهم، الجود بأي شيء من الطُّعم الذي كان أعدّه وأحضره معه. يتحاشون استجداء الطُّعم والخوض في السياسة. فإذا انزلق لسان خلعوا الجميع خلعة أشعرية[٢٤] سوى «سيدي الحسن» الذي يصرّ اليهود المغاربة على القسم بحياته حتى يومنا هذا، ويصرّون على تسمية اللحم المشوي «شيشًا».

وأما الكشاف الكهربائي فكان مشغولاً بحواره الليلي على أيهما أضمن لأمن هذه الدولة: الساتر أم الهاتك. فكان الجندي، الذي يحركه، سَيَّافُ ضوء يخوض بسيفه معركة مع جحفل لجب من غيلان الظلام لا يسقط منه فارس حتى يحل محله فوارس.

وكان، حين تضجره هذه الصولة الضوئية، التي لا تُضلل

سوى أسراب من البلم – وهو صغار السمك – أضجرها طول انتظارها لطلوع الفجر فتنطُّ فوق سطح الماء ظانّة أن الفجر طلع، يحوِّل كَشّافه نحو مكان صاحبنا المعهود فوق صخرته المعهودة ليعود ويفحص حاله أنه موجود فوق الصخرة وأنَّه يمارس هواية ولا يموِّه، بها، على أمن الدولة وما هو على موعد مع فدائي فلسطيني جاء إليه تحت الماء يسعى لينسف الكشاف الكهربائي ثم ينسف الدولة كلها دفعة واحدة كما نُسفت الزيب وأخواتها دفعة واحدة جزاء بجزاء!

قال: وكنت أكره منه لجاجته في تصويب سيفه الضوئي نحو موقعي. وكان يُبقيه، أحيانًا، جامدًا على ظهري فأُحس به يلسعني لسعًا شديدًا في نقطة واحدة من ظهري فأستدير برأسي وبصدري وأُخرج من جعبتي سمكة صغيرة، ممّا أكون اصطدته من السّمك، وأُلوِّح له بها على سبيل رد التُّهمة.

سوى هذه المرَّة. فقد شعرتُ نحوه شعور المستجير من الرَّمضاء بالنَّار.

الصوت صوتها وتناديني كما كانت تناديني تحبُّبًا تارة وعتابًا أُخرى.

فهل عادت إليّ أخيرًا؟ من بين الأحياء عادت أم عادت شبحًا من بين الأموات؟

لأنطق باسمها عاليًا ولتضحك منِّي كل الدُّنيا أو لتبكِ على

حالي كل الدُّنيا.

– سرايا!

غير أن السيف الضوئي سبقه إلى لسانه فعقده. أنشَبَ كشَّافه في صدره. فوضع يدًا على عينيه ويدًا على صدره. قال: حاولت أن أنتزع من صدري وخزة ضمير طعنتني عميقًا في باطني كأنني قاتل أُخته التي جاءَت تستجير به من مغبَّة سِفَاح فأهدر دمها.

– بيدك يا خيّا؟!

– أين اختفت سرايا؟

فما إن أخذ الضوء يتَّجه نحوه، في جولته الأُفقية، حتى خيِّل إليه أن الشبح أقعى في حفرة ماء صخرية واقعة ما بين رمل الشاطئ وصخرته. لم يستقرّ الضوء سوى برهة ثم تركه والظلام الدامس وتلك الحفرة.

وأعوى كلب وتَلمّظَتْ حيّة أفعى. ولكن تجاربه ووساوسه الحالية أبقته، هذه المرَّة، غير مُوَسْوَس.

إن تعرُّفه على أصوات البحر قديم قِدَم تعرُّفه على أصوات الكرمل.

ولد في وسط واد[٢٥]، ينبع من الجبل ويصب في البحر، توًّا بعد انتقال والديه وإخوته من القرية البرية[٢٦] إلى المدينة البحرية[٢٧]. ولم يحملوا معهم، إلى المدينة، سوى أساطير

عيون الماء التي كانت تحيط بقريتهم – ذات الكروم وأشتال التنباك ومشاحر الفحم – وأساطير الجن والقرينة وعين عافية وسفتعادي وخزانة والدتهم أُم بديع الأثرية وجرن الكبّة المنحوت في حجر.

وحمل هذه الأساطير معه إلى شاطئ البحر وإلى «وادي العشّاق» على الكرمل.

وقعد، منذ أن «طقت جوزته»، ينتظر عروس البحر. وكان يخوض في مياه الشاطئ حتى صخرة متقدِّمة، يتحدَّى الأمواج ويرمي خيطه. وكانوا يجدِّلونه من أذناب الخيول: يمرِّرون الخيط أو الخيطين منها فوق صابونة نابلسية حتى ينجدل ويقسو ويصبح خيطًا واحدًا. فإذا تغير الريح وتجهَّم وجه البحر أصبح طارق بن زياد: البحر من أمامه والعدو من ورائه وليس له، والله، إلا الصدق والصبر – إلى يومنا هذا.

تَعَوَّدَ، منذ طفولته، على أصوات البحر النهارية – فكلام البحر في النهار غير كلامه في الليل حتى كأنّه الذي قيل فيه «كلام الليل يمحوه النهار» – من خشخشة أصداف الشاطئ الرملي، الهمزة اللمزة، حتى ارتطام زخّات المطر بالموج الكافر وهو يتطاول على سمواته السبع مرتكبًا خطيئة برج بابل. وكانوا يكمنون لأسماك المرمور الصغيرة في الخشخشة. ويبحثون، بين الحفر الصخرية، عن سمك البوري الذي حبسه

انحسار الماء بعد رحيل العاصفة. ويدلّون سردينة بين شقوق الصخور فيصطادون دواقير أطول قامة من قاماتهم.

أمّا أصوات البحر الليلية فشيء آخر. فالظلام يفكّ عقدة لسان البحر فيعوي ويتأوّه ويوشوش أحيانًا.

ويجيء أوان الجزر وينحسر الماء من حوله سوى ماء الموج الخفيف يأتي الصخرة، التي جلس عليها، من تحتها: يرتطم بسقفها ويشبّ في نافورة من فتحة طبيعية.

ويعوي من ورائه كلب. ويكون الظلام دامسًا، طبقات فوق طبقات. فيلتفت إلى ما وراءَه مذعورًا. فلا يرى سوى صمت الصخر. فيسرع في جمع حوائجه حيطة. فيعود العواء من ورائه فينتهره صارخًا: «وشت»! فإن كان مواء فالصرخة «بِسّ»!

حتى إذا تكرَّر الأمر أدرك أنه صوت البحر يندفع من خلال فتحة في صخرة من ورائه. فيضع راحة كفِّه فوق الفتحة فيخرج صوت البحر كما يشاء وكأن راحة كفِّه شفتان يضمّهما ويفتحهما على صفير لحن.

وفوق صخور أُخرى، على شواطئ أُخرى من بلاده، أفزعته أنَّات محتضرين وطَيّرَه[٢٨] فحيح أفاعٍ وقهقهة مَرَدة!

وفوق صخرة في «وادي العشاق» في الكرمل دوّرَت[٢٩] رأسه زغاريد جنِّيات وحكايا شجر وأغاني عيون ماء.

نطقت الطبيعة قبل أن ينطق ولدها. ويكون تعلّم النُّطق منها. فرددنا، كما صوت الطبيعة: «حفيف الشجر وفحيح الأفاعي وهدير البحر وهديل الحمام وانسياب الماء وانصبابه. والعواء والعويل والمواء والصهيل والنَّعيق والنَّعيب والنَّهيق والشَّهيق والزَّفير والثُّغاء والوشوشة والحشرجة. والتأوُّه والأنين والحنين. والضوضاء والجلبة والبلبلة».

ومن أصوات الطبيعة جمع امرؤ القيس سيمفونيّته:

«مِكرٍ مِفرٍ مقبلٍ مُدبرٍ معًا

كجلمود صخر حَطّهُ السيل من علِ».

قال إن هذا البيت، من معلّقته الجاهلية، جاءَه وهو فوق صخرته يبحث عن أثر ذلك «الشيء» الذي ذاب طيفه في بحر جاهلي من الظلام الدامس. اختفى وخلفه بين بين – مصدِّق ومكذِّب كما قال.

ماذا يقول لأصحابه الصيادين وقد اجتمعوا على شواء ينتظرونه؟ فإذا كان «الشيء» واحدًا منهم، تَخَفّى في ثوب شبح أُنثوي، فيا ويله من ألسنتهم. وأما إذا كان الذي التقاه هو ما كانوا يتهامسون به – بين مصدِّق ومكذِّب – فيا ويله من ألسنتهم، أيضًا. سوف يطلقونها من عيونهم نظرات الظن في همَّته أو الظن بعقله.

قال: أُطبق صدري عليه إلى الأبد.

لملمت أشيائي وقرَّرت العودة إليهم. عالجتُ مشعلي الكهربائي فخذلني. فرثيت لحالي وحملت أشيائي فوق ظهري وعلى كتفي ورحت أتلمَّس طريقي فوق الطحالب اللزجة والصخور البلورية الملساء وأنا أحبو على أربع خوفًا من الانزلاق. وكنت أستهمّ وأخطو خطواً سريعًا كلما مرق ضوء الكشَّاف من أمامي. ثم أعود وأحبو على أربع.

حتّى أحس برمل الشاطئ تحت يديه وقدميه وهو يحبو على أربع. فانتصب واقفًا على قدميه الاثنتين وانتعش أمله في بلوغ موقع أصحابه سالمًا. فبعد رمال الشاطئ أصبح سبيله واضحًا وسالكًا كما حسب لبلوته وشقائه.

كان الكشَّاف يدلّه على موقع العسكر فوق الهضبة. فما عليه إلا أن يتحسَّس طريقه أمامه فيصل إلى مرتفع من الأرض فيرتقيه عبر درجتين حجريتين تعوَّد عليهما في غُدُوّه ورواحه. فإذا بلغ ذلك المرتفع – وهو تلّة رملية – يحيد عنه إلى اليمين قليلاً مبتعدًا عن تلّة الكشاف. وهي تلّة قديمة كان سكان الزيب اختاروها مدفنًا لموتاهم. وفيما بعد أعلمنا مصطفى مراد الدباغ، في موسوعته «بلادنا فلسطين»، أن الجماجم – في تلّة الجماجم – قديمة ومنذ زمن الرومان. وكانت، في زمني، قد عبثت بها أيدي الإنسان والموج والريح حتى كشفت عن فتحات القبور في الجانب الذي تعوَّدنا المرور منه.

وكانت أقدامنا ترتطم بعظام وبجماجم أحيانًا. فنعيدها إلى قبورها. وأحدنا تعوَّد على إلقاء السلام على جمجمة أعادها إلى مكانها في قبر مكشوف الجانب. ثم جاء، في أحد الأيام – قال – فلم يجدها في مكانها ولا في أي مكان آخر. قال: «وكأننا لم نكن»! قلت: «ونحن؟» قال: «وهل سيدفنوننا»؟!

قال: ارتقيت الدرجتين الصخريتين وتحسَّست أطراف تلّة المدافن وابتعدت عنها عدّة خطوات إلى يمينها ولم يبق أمامي سوى أن أبلغ موقع الأعشاب، بعد الرمل، فأبحث عن الطريق الترابي الضيِّق أصعد فيه بضعة أمتار متعرِّجة فتظهر لي النار التي أشعلها زملائي لشواء اللحم والسمك.

كان ضوء الكشاف، إلى يساري، بوصلتي التي كان عليها أن تهديني إلى هذا الطريق في هذا الظلام المطبق. غير أن المصيبة، حين تنزل بنا، تكون مجرَّد مفتاح لصندوق مصائب. فما إن ابتعدتُ عدة خطوات، إلى اليمين من أفواه القبور، حتى انطفأ ضوء الكشاف لسبب مجهول. فادلهمَّ الظلام واختلطت عليّ الاتجاهات. فرحت أصرخ مناديًا على أصحابي أن يسمعوني. فعلا هدير الموج على صراخي. فترامى إلى مسمعي أزيز رصاص بدا لي أن صاحب الكشَّاف يطلقه على أسماك البحر. فبعد أن مات كشافه أحيا رشاشه. خفضت

رأسي وزحفت على بطني في اتجاه الطريق الترابي.

فلم أنتبه إلى غلطتي إلاّ وأنا أسقط على الدرجات الحجرية عائداً إلى رمل الشاطئ وقد تبعثرت حوائجي ولم يبق معي سوى قصبة الصيد الطويلة. فرميتها، هي أيضًا، وأنا أُردد: «لعنة الزيب»!

ولكن، لماذا اختارته من دون خلق الله أجمعين؟

– ومن قال لك إنني الوحيد الملعون بهذه اللعنة؟ فقد يكون سواي أخفى مصيبته كما أُخفيها أنا!

عاد يتحسَّس موقع قدمه محاولاً العودة إلى الدرجات الحجرية. فإذا هو يتحسَّس ماء البحر. قال إن هذا يجب أن يكون من ورائه. فاستدار ومشى على رمل. ومدَّ يده إلى أمام ومشى.

قال: وإذا بيد تأخذ بيدي وتسحبني وراءها شمالاً نحو مصب «وادي القرن».

وتصعد في الوادي وأنا أسير وراءَها مأخوذًا. أهتدي إليها من رجع صوتها وهي تناديني، بين الفترة والفترة، بيا يابا.

الصوت صوت سرايا.

كانت سرايا، من قبل حوالي نصف قرن، تأخذ بيدي وترتقي بي «وادي العشاق» وهي تنذرني بأن قد حان موعد عودتها إلى مضارب أهلها. فإذا تأخَّرت حسبوا الذيب أكلها.

وتشلح الشمس عنها غلالة بيضاء نورانية. وترفع الشمس يديها من وراء قلعة القرين[٣٠] بهذه الغلالة النورانية. وتنشرها فوق القلعة وإلى ما وراءَها.

وتسبغ الشمس علينا غلالة بيضاء نورانية ثانية.

فينجلي المشرق وينجلي وجهها أمام ناظري – وجه سرّي الدفين – وقامتها وشعرها الكستنائي وشفتاها المتعطِّشتان إلى المياه العذبة تعطُّش الشرق، تعطشًا أبديًّا، إلى الواحات وإلى ظلال الشجر.

– « يابا »!

– أبوك، يا سرايا، لم ينفكّ يبحث عنك في الطيَّات المجهولة من ضميره الذي حبسه في قصر شيَّده فوق قمَّة يخفيها الضباب الأبدي من قمم الكرمل.

ينتظرك انتظارًا مريعًا أشد ايلامًا من يقين المؤمن بأن الموت حقّ. فهل أرى في عينيك لومًا أغمضتُ عيني ضميري عنه طول هذا العمر خوفًا من ضياع ذلك اليقين؟

تعودتَ على هول البحر وموجه وسحره وعلى ما يغسله في الذاكرة من صدإٍ. تعودتَ على أصوات البحر ومرئياته الليلية حين يختلط البر بالبحر والصخرة بالموجة والزبد بالغمام فيمتزج البقاء بالفناء ويصبح الفناء جزءًا من الوجود. والكون واحد. ويسقط نيزك فتتمنَّى حدوث ما تشاء حدوثه. حدث

ما تتمنّاه، أم لم يحدث، فالأمر سواء في هذا الفضاء.

فهل السحر المنبعث من هول الجبال ذو فعل آخر أشد هولاً؟

من دوار البحر أصعد إلى دوار الجبل.

ورثنا حكايات عن «الهولة» التي كانت تظهر للمسافرين في الليل بين الوهاد الصحراوية. وكانت «هولة» الصحراء عجوزاً شمطاء.

فهل «هولة» الجبال سراب سرايا – صبيّة ذات صبًا لا يزول – أشبه بسراب الواحة الذي كان يظهر للصعاليك الباحثين عمّا كانوا دفنوه في الرمال من قِرَبٍ من جلد الماعز جمعوا فيها الماء العذب ثم أخفوها في أماكن تحت الرمال علّموها بعلامات لا يعرفها سواهم؟ حتى إذا هربوا إلى الصحراء من ظلم السلاطين، وشقَّق الظمأ جلودهم، بحثوا عنها وبلَّلوا شفاههم. فكيف يكون حالهم إن أوغلوا في الصحراء فاختلطت المعالم عليهم فتاهوا عن مواقع ما حفظوه من ماء لهذا اليوم فطارت قلوبهم شعاعًا فتزاولوا راكضين وراء زول الواحات وما هي بالواحات؟! ما زالوا يتزاولون حتى يومنا هذا. يولدون عطاشى ويموتون عطشانين لم يعطوا ما يروي غليلهم سوى نهر خالد من أنهار الجنَّة.

(٤)

وترتقي، وهي أمامه وهو وراءَها يسير كالمأخوذ، طريقًا ضيِّقًا ومتعرِّجًا يقود إلى تلة جعلها أولاد عمِّنا مزارًا يشرف على واد فسيح وعميق الغور تنتصب، في جانبه المواجه، بقايا قلعة القرين الصليبية التي هدمها الظاهر بيبرس.

وتقوده إلى شرفة طبيعية في الصخر تشرف على القلعة. وتنشر يديها، نشر الطائر لجناحيه، وتهبط نحو الوادي السحيق.

ويهرع نحو الموقع الذي وَقَفَتْ عليه قبل هبوطها فيهوله الجرف الصخري ولا «ممسك» فيه لهابط سوى علّيقات كثَّة نبتت بين أشقاف الصخور وتحته وادي القرن المترامي الأطراف ومياه عذراء رشحت من وسط الوادي بين واحات قزمية من شجيرات ذات ثمر بدأ ضباب الفجر الندي يتكشّف عنها رويدًا رويدًا.

قالَ: قعدت القرفصاء فوق الشرفة الطبيعية أترقَّب طلوع الشمس من وراء القلعة وطلوع الطيف من وراء دغلة عليق.

وسرَّحت الطرف فيما حولي من جبال أُشاهدها عن كثب لأوّل مرة في حياتي. فاكتنفتني، كما السكينة المطبقة عليّ من كل جانب، ألفة قديمة إلى هذه الجبال أيقظت في نفسي

– المستريحة على حتميَّة الفناء – هواجس المساءَلة الذاتية: في أية حياة، في أي زمن، كنتُ ألِفْتُ هذه النواحي؟

دهمته الخيالات نفسها، التي كانت دهمتنا حين كنّا طلابًا في «مدرسة الجبل» في حيفا، إذ أبلغونا، لأوّل مرّة، عن أحلام الفيلسوف الإغريقي القديم فيثاغورس[٣١] عن تناسخ الأرواح. وعلمنا، فيما بعد، أنه أقام متنسِّكًا متنكِّرًا في صومعة على جبل الكرمل ردحًا من الزمن هاربًا من حكم عليه بالموت أو طلبًا لحياة أُخرى. وكان الكرمل، في ذلك الزَّمن السحيق، إلهًا. وفي كنف هذا الإله، في مغارة من مغائره العديدة، اهتدى إلى «وحدة الكون» طبيعة ورياضة ورياضيات. ويكون أقام في كنفه ليصبح جزءًا منه، في وحدانية لا تنال الأبعاد منها أي منال. وقد يكون أول من سكن مغارة «الخضر»[٣٢] وأورثنا إيّاها.

كنت أتخيَّل جبل الكرمل، وأنا نازل عليه من مرتفعات الناصرة وشفاعمرو، ثورًا أقعى متحفِّزًا للانقضاض على مصارع ثيران جاءَه من الأندلس. يهمله في ترقب غفلة منه. فإذا غفل عنه لم يمهله لحظة واحدة. داومتُ، على هذا الخيال، صباحًا صباحًا، قرابة أربعين عامًا، أتوقَّع أن يستشيط هذا الثور غضبًا. ولكن لا حياة لمن تنادي. فهو صبور صبر العرب!

ضحكت، لعل الضحك يبعد الرؤى المؤرقة: لو ظهر طيف

سرايا من ورائي الآن وصاح، فجأة، في أُذني أن «بُع»! ثم أغشى بالضحك من فزعي، ماذا كنت أفعل؟

تذكرتُ رسالة غريبة كان أحد أولادي قد أرسلها إلي من تشيكوسلوڤاكيا حين كان يتلقى العلم في جامعة پراچ. استهلها بالوعد بأنه سيحدّثني بالتفصيل، حين نلتقي في عطلة الصيف، عن أمر مذهل وقع له وأورده في رسالته بإيجاز. فلما التقينا لم يعد إلى هذا الأمر ولم أعد إليه.

وإجمال رسالته أنه سافر مع زملائه، ذات صيف، إلى جبال «تترا» الشهيرة بغاباتها وبينابيع عيونها وبالمشيب المقيم فوق قممها صيف شتاء. ومنها أخذوا اسم السيارة التشيكية، الشهيرة بضخامة محركها وبعدم تجدُّده حتى كأنها الجبل متحركًا – «تترا». ولا أندهش إن علمت أن رؤى الجبال الأُوروپية تظهر، في مخيلات الأُوروپيين، ممكننة! نزلوا من الطائرة، التي حملتهم من پراچ إلى سفوح الجبال، متعبين ودائخين. وكان اهتزاز الطائرة، وهي تهبط، قد هدَّ أعصابه علمًا بأن «فرخ البط عوام». ركبوا، محشورين، باصًا يقلُّهم إلى فندق للسيَّاح في أعالي الجبال. قال: «فما إن جلستُ على مقعدي في الباص حتى أحسست بعينين عميقتي الغور تخترقان ظهري اختراق المسامير أو المقادح اللولبية. فاستدرت نحو صاحبهما وأنا أنتفض كالملسوع».

قال إنه صعق حين وجد العينين، اللتين تحدّقان فيه، عينيّ – أنا والده – ووجه ذلك الرجل وجهي. فلم يتمالك نفسه عن الهتاف: «يابا»! ثم أدرك استحالة هذا الأمر فأصابته القشعريرة.

قال: «لم أقو على تحريك ناظريَّ بعيداً عن عينَي ذلك الرجل. بل قمت عن مقعدي وتوجَّهت نحوه حتى وقفت أمامه أُحدِّق فيه وهو قاعد. ولما اشتدَّت وطأة نظراته عليّ همستُ في أُذنه متوعِّداً، وأنا الخائف: هل تعرفني؟ لماذا تحدج في وجهي؟ فأغرب الغريب بالضحك وأجابني: كنت أحسب أنك أنت الذي تحدج في وجهي وتتوعَّدني!. فضحكنا. فزال السحر عني ووجدته لا يشبهك بل يشبهني أنا أكثر مما يشبهك».

أُخرج يا طيف سرايا من تحت علّيقة معلَّقة على سفح الوادي الصخري. وأضحك وأغرق في الضحك فيزول السِّحر ويعود صاحبنا إلى حياته الرتيبة!

ولكنّه يعلم، علم اليقين، بأن سرايا آدمية من لحم ومن دم. وأنها واحة من ينابيع ماء ومن أشجار دائمة الخضرة ذات ظلال وارفة لا سراب واحة. سرايا موجودة وجود الكرمل بكوزه المعطاء والفيَّاض. تشاهده وتسمعه وتشمُّه وتذوقه وتلمسه في آن واحد – لا مجرد رؤيا من رؤى الكرمل.

– ما شأن الكرمل وهذه النواحي؟ أين الكرمل وحالك في هذه الساعة، يا عبد الله؟!

قال: ضحكت، فعلاً، في تلك الساعة لعلَّ الضحك يحملني على جناحيه إلى «وادي العشاق» فأعود وأجلس مع سرايا على صخرتنا هناك ونتظاهر بأننا نلوّح بخيوطنا ونلقيها وبأنها تسقط في عُرض البحر وبأننا نشدها – كل خيط وقد علقت بصنارته سمكة – وبأنني اصطدت عروس بحر تغار منها وبأنها اصطادت عريس بحر. فنتخانق، أي نأخذ بخناق بعضنا البعض، فتلتف خيوطنا على أرجلنا وعلى أيدينا سوية فلا نستطيع الفكاك منها.

فنسمع، من بعيد، ثغاء شاة أو صفير راعٍ. فنجلس بعيدين لا حراك بنا كأننا قرنان نابتان، منذ الأزل، من تلك الصخرة. ونحبس أنفاسنا حتى يبتعد الثغاء وينقطع الصفير. فننفجر بالضحك وقد فكّت عقد خيوطنا!

قال: تخيَّلت الوادي السحيق، من تحتي، بحرًا أو بحيرة تعج بالماء. كان انعكاس خيوط الفجر الأُولى على الوادي الندي وما تَنَهَّدَ به من ضباب قد أوهمني بأنني قاعد على صخرة على شاطئ بحيرة. رفعت يدي ولوحت بخيط غير مرئي ثم ألقيته في عُرض هذه البحيرة.

شددت إليّ هذا الخيط فإذا هو عالق بصخرة باطنية.

– بدران، يا بدران! إليّ أنقذ خيطي!

كان الولد الأسمر، بدران، صياداً ابن صيادين من القلائل من أهل عكا الذين استطاعوا الغوص في بحر عكا وحبس أنفاسهم حتى مرَّت العاصفة[٣٣] فخرجوا وتسلَّقوا صخور الشاطئ عائدين إلى فليكاتهم. فلما ردُّوهم غاصوا تحتها وحبسوا أنفاسهم.

وكان صخر الشاطئ ينشقّ عن الولد الأسمر، بدران، كلما قعدت على صخرة أصطاد السمك. فما إن تعلق صنارتي بصخرة في قاع البحر حتى يقذف الولد الأسمر بدران بجسمه النحيل البرونزي في البحر ويغوص فيه عميقًا وطويلاً ولا يطفو على سطح الماء إلا بعد أن يطلق سراح صنارتي.

– شدّ الخيط على مهلك، يا با العبد، ففي الصنارة سمكة عفيّة.

وأشدّ الخيط على مهلي. ويكون في آخره سمكة من نوع «الحَفَشْ» كانت غافلتني واختبأت في شقّ صخري تحت الماء فجاء الولد الأسمر بدران وأرغمها على الخروج من الشقّ والانصياع لشدّ خيطي.

ما كنت أقع في ورطة بحرية، أمام بحر أو في عُرض البحر، وأستغيث – في سرّي – بالولد بدران إلاّ وينشقّ الصخر أو البحر عنه مقبلاً أو مدبرًا أو عائمًا لخلاصي.

وما كان يطلب جزاءً سوى أن أُجيب على سؤاله: «وآخرتها يا با العبد!» وكنت أضحك وأُعيد عليه الحكاية نفسها.

فإذا فرغت من حكايتي بدأ في حكايته عن أهل عكا الأصليين – وعائلته منهم. فكلهم، في اعتقاده، هجين. دماؤهم اختلطت بدماء الأروام والسلاجقة والأرمن والفرنج وقبائل ديار بكر[٣٤] وما وراءَها. ومنهم من علقت به هذه الأرومة إلى الأبد. فهو بدران الرومي. وجاره النصراني من عائلة السلجاق التي أصبحت «السلباق». وعوائل «الإفرنجي» منها المسلم ومنها النصراني. وأما «بكر» و«أبو بكر» و«البكراوي» فكلهم شقر برص لا يمتُّون إلى الشرق إلا بالإسلام.

وأشدّهم ادعاء بنقاوة الدم هم أُولئك الذين توارثوا اللحى الطويلة وكشروا عن أنيابهم – أي ولدوا ملتحين ومنيّبين. فمنهم «الحاج» ومنهم «أبو ناب» و«أبو سنة» و«الشنبا». وبعضهم مسلم وبعضهم نصراني.

و«الشنبا» هو الرُّمّان الأمليسي. وفي شفاعمرو يسمونه «المليسي». وهي عائلة مسيحية.

و «الأمليسي» هو الرُّمان الذي ليس له حب. إنما هو «ماء في قشر». ومن الحَبِّ، لا الحُبّ، جاء «الحبيبي» الشهير بأنه كله سُكّر. أي كثير الحَبّ واللبّ كأنّه التين الشوكي (الصَّبّار)

أو الرُّمان الضخم، الحلو والحامض في آن، الذي خصّ به جدّي – أبو درويش – مرمنته[٣٥] الشهيرة في شفاعمرو وأطلق عليه اسم «راس البغل». ويأكله البغال وبنو آدم. ومن أدمن عليه منهم قوي واشتد وأصبح بغلاً.

وكان يناديه باسم «عيسى العوَّام». وحدثه بواقعة «عيسى العوَّام» هذا. وكان يستزيده الحديث عنها كلما التقيا.

و«عيسى العوَّام» هذا شاب ذكره العديد من مؤرخي الحروب الصليبية أنه نجح في اختراق الحصار البحري الذي فرضه الفرنج على عكا المسلمة في العام ٥٨٦هـ (١١٩٠م). كان يغوص تحت مراكب الفرنج ويخرج بين أهالي عكا المحاصرين حاملاً إليهم الكتب والنفقات في ثلاثة أكياس شدَّها على وسطه.

ولندع مؤرخ «سيرة صلاح الدين الأيوبي» – بهاء الدين بن شداد – يروي لنا قصته:

«أن عوّامًا مسلمًا كان يقال له عيسى. وكان يدخل إلى البلد[٣٦] بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً، على غرَّة من العدوّ. وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدوّ. وكان ذات ليلة شدَّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر. وعام في البحر فجرى عليه من أهلكه. وأبطأ خبره عنّا. وكانت عادته أنه إذا دخل البلد طار طير

عَرَّفنا بوصوله. فأبطأ الطير. فاستشعر الناس هلاكه. ولما كان بعد أيام، بينما الناس على طرف البحر في البلد، إذا البحر قد قذف إليهم ميتًا غريقًا. فافتقدوه فوجدوه عيسى العوّام. ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب. وكان الذهب نفقة للمجاهدين. فما رؤي من أدّى الأمانة في حال حياته وقد أدّاها بعد وفاته إلا هذا الشاب. وكان ذلك في العُشر الأخير من رجب من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة».

ونفر سرب من الطير من ورائي. فالتفت إلى ورائي فإذا بالولد الأسمر العكاوي، بدران، يصعد التلّة متّجهًا نحوي.

– «عيسى العوّام؟ ناديتك في سرّي، فكيف سمعتني؟»

– «استعوقوك فأرسلوني أبحث عنك وأقول لك إنهم عادوا إلى بيوتهم فعُدْ إلى بيتك، قبل هبوب العاصفة».

وهبَّت العاصفة.

وكان للعاصفة صفير. ثم تحوَّل صفير العاصفة إلى عويل ذكّره بعويل الندّابات على جثمان شاب يرفعه إخوته وأولاد عمِّه على أكتافهم حاملينه إلى مقرِّه الأخير.

وكانت صخور تهوي إلى قاع الوادي السحيق.

ونطقت العاصفة تناديه بيا بابا، يابا!

ورآها، آخر ما رآها، واقفة في وسط الوادي تلوّح له تلويحة الوداع.

وعادوا بسيّارته. أعاد «عيسى العوّام» إلى بيته في عكا وأما هو فعاد إلى ترديد شعر ابن زريق:

«ودعـــتـــه وبـــوُدّي لـــو يـــودّعـــنـــي

صـــفـــو الحـــيـــاة وأنـــي لا أُودّعـــه».

ولم يكفّ عنه هذا البيت حتى وصل إلى مفترق «عين السعادة»[٣٧] - مدخل حيفا من جهة الشمال - ولم يعرِّج على حيفا بل توجَّه بسيَّارته نحو الناصرة.

قال: وتساءَلت في نفسي هل عادت سرايا إلى صخرتنا على الكرمل وهل عدت إلى عادتي من التردُّد في الخطوة الأخيرة؟

أخالني تركتها في صومعة فوق جبل. فلو كان تل القرين لما تركت سوى طيفها. ولو كان الكرمل فإنه باق ينتظرني حتى أفرغ ممّا لديّ وأقوم إلى سرايا أبحث عنها. وإذا لم ألحق أن ألتقيها في هذه الدورة من حياتي فسوف أنتظر دورة أُخرى.

ولا أتخيَّل الموت يأتيني قبل أن تأتيني سرايا لعلّنا نتّفق على لقاء، في الدورة القادمة، أطول مدى من فراقنا في هذه الدورة.

الفصل الثاني

يامَّـاه !

« فـيـمـا يُـحسّ الإنـسـان الـفـرد بـخـواء الـرغـبـات والأهداف الإنسانية يُحس بالروعة والرفعة التي يتكشَّف عنهما نظام الطبيعة وعالم الفكر. فيرى إلى الوجود الفردي أنه نوع من السجن فيرغب في استيعاب الكون على أنّه وحدة كلية موجودة لغرض »[1].

(ألبرت أينشتاين)

(١)

– «وبعدين»؟[٢]

– «بعدين» تجسَّدت أطيافهم ناسًا سويّين. إلا أنهم جاؤوا يدبُّون على ثلاث: هرمين وغرباء إلا عن قبور أحبَّائهم.

وكان بينهم أخي الكبير جواد الذي كان تركنا، وعائلته، وهو في عزِّ الشباب – ابن أربعين وثمانية. وعاد إلينا مقلوب العمر رأسًا على عقب: ابن ثمانين وأربعة.

لم يتحمَّل أن يقضي بيننا سوى أُسبوع كان ينهي كل يوم من أيامه بمساءَلتي: «وبعدين؟». فكنت أذكر له مَعلمًا كان مألوفًا عليه وما كان حج إليه، بعد. فنخفف الوطء[٣] إليه. فنجده أو لا نجده. ونلقاه ويلقانا أو نلقاه ولا يلقانا. ونجده يهشُّ في وجوهنا ويبشُّ أو نجده لا يكشّ في وجوهنا ولا ينشّ. وكنت أتجوَّل معه متوكئًا على ذاكرته فيما كان يتوكأ هو على عصا عتيقة وغريبة الأطواق (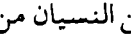)[٤] مضت تنبش أطمارًا ومزابل من النسيان من فوق ذاكرتي منذ أن وقعت عليها عيناي لأوّل وهلة وهو خارج من بوابة العبور في رأس الناقورة[٥] يتوكّأ عليها.

ولمّا وجدته يشيح بوجهه عن تلك المعالم أكثر مما أشاحت هي بوجهها عنّا – كان يدير ظهره لها ويقول: «مسكونة»[٦]

– وجدتني، في نهاية اليوم السابع، أسبقه إلى السؤال: «وبعدين؟» قال: «لا بعدين ولا قبلين: عُد بي، في الصباح، من حيث أتيت».

وفي الصباح عاد إلى بيروت عبر بوّابة رأس الناقورة. وجلس إلى جانبي في السيارة مطأطئ الرأس لا ينظر إلاّ إلى عصاه التي وضعها بين قدميه.

قلت: «أتخاف أن تنظر إلى ورائك فتنقلب إلى عمود ملح؟»[٧].

فنكث أرض السيارة بعصاه ولم يَحِرْ جوابًا. وبقينا على هذه الحال حتى عبرنا جسرًا فوق مصب نهر النعامين[٨]. ولم ينظر في وجهي حين همهم قائلاً: «من شبّ على إضاعة الفرص شاب على حياة كلها فرص مُضاعة».

وكانت فرصته المضاعة من «أسرار العائلة» المتداولة بين الأطفال همسًا بصيغ متعدِّدة ومتفاوتة المضمون أحيانًا. فلم أستزده في تلك الرحلة الأخيرة خوفًا على بقية أمل – في لقاء آخر – من الغرق في رمال الواقع المتحرِّكة مثلما غرقت فرصته المُضاعة في مصب نهر النعامين.

كانت أُخته الكبيرة، التي تصغره ببضعة أعوام، أوَّل من أورثه سرّ أخيه وهو، بعد، في العاشور الأول من عمره.

وكانت شاهد عِيان.

قالت: «كنا نستخرج الملح من رمل الشاطئ. من موقع يسمى باسم الملاّحات بالقرب من مصب النهر. نخرج من بيوتنا في شفاعمرو قبيل منتصف الليل ونعود، محمّلين بأكياس الرمل فوق ظهور الدوابّ (الحمير)، قبيل طلوع الفجر.

«كانت والدتي توقظني من النوم والظلام مطبق. فنخرج راكبين على ظهور الدوابّ ونعود متعلّقين بأذنابها.

«يكون ماء البحر قد انجزر عن جزائر من الرمل على شاطئ البحر. فنملأ منه عدولاً أو خُرُجًا نحملها فوق ظهور الدوابّ. فأُمسك بذنب الحمار وأُهرول وراءَه حتى لا أُضيع السبيل ولا يغلبني سلطان النوم.

«وكنّا، حين نعود، نُصَوّل الرمل بسكب الماء عليه في إناء نحاسي كبير كنا نُسَمّيه اللجن. فيرسب الرمل في قعر الإناء ويذوب الملح في الماء. فنصبه في قدور كبيرة نشعل تحتها المواقد، من لبش السمسم[٩] وما تقع عليه أيدينا من قُرميات جافّة. فقد استولى الأتراك على الحطب وأحرقوا الغابات. وأما الإنجليز فمنعوا التحطيب. ويظل الماء يغلي في القدور حتى يتبخّر ولا يبقى في القدر سوى الملح. فنبسطه فوق المصاطب أو فوق السُّطوح حتى تجففه حرارة الشمس.

«وكان لا يقوم بهذا العمل سوى الإناث دون الذكور، ذهابًا

وإيابًا وتذويبًا وتجفيفًا».

سوى أخيك جواد.

كانت لنا قريبة مفرطة في الغنج من طفولتها. وكانت شقراء بيضاء كما لو أنها لم تنتسب إلينا. مات عنها والداها في زلزال وقع قبل مولدي. فتربَّت في بيت جدتي القديم، مريم الشفاعمرية[١٠]. وكانت في عُمر جواد أو تكبره قليلاً. وكان لا يخفي تفضيله إياها. فإذا استيقظت وجاءَت معنا إلى الملاّحات وجدناه قد استيقظ وجاء معنا متلصِّصًا على قافلتنا حتى نبلغ العين، في طرف البلدة الشمالي. فنجده بيننا. كنت أَنزل عن ظهر الدابّة قبل أَن يطردني عنها ويُجلس «الدلوعة» فوقها في الرواح وفي الإياب. وحين تتنبَّه الوالدة إلى نزولي عن الدابَّة، طواعية، تدرك ما حدث. فتأخذ في التمتمة: «فضحنا الولد، الله يفضحها»[١١].

وكانا يقضيان وقتهما في الملاّحات سباحة في مصب النعامين. وقبل طلوع الفجر، في أحد الأيام، جرفهما ماء النهر إلى عُرض البحر.

وخرج من الماء وحده. ذهب نحو الدّابّة وهو يجأر جئير وحش يُذبح. ثم ركب على ظهر الدّابّة وغاب بين الأدغال أُسبوعًا كاملاً. ونزلت النساء إلى عمق البحر – «إلى ما فوق الركب» – يبحثن عنها. وتهامسوا بأنه كان يقدر على إنقاذها

من الغرق ولكنه أنقذ نفسه. وتهامست الصبايا بأنها غرقت من شدَّة العناق. وأُخريات تقوَّلن بأن عمَّة نشطة من عمَّاته لحقت بها وأغرقتها حتى لا تنافس ابنتها عليه. وهو أمر مستحيل الوقوع لأن عمّاتي كلهن لم يقربن كمية من الماء أكبر من كمية الماء في جرن المعمودية.

وكان الوحيد من بين إخوته مَنْ أدمن على الخمرة منذ مطلع شبابه. وأجمعوا على أنه يفعلها من شدة تأنيب الضمير. ولما وُلدت له طفلة سمَّاها باسمها: سُعاد. وماتت سعاد الثانية، وهي طفلة، بمسّ كهربائي غير متعمَّد. وأوّل من حج إليه من معالم الوطن، في حَجّة الوداع تلك، هو ضريح ابنته سعاد.

قال: والتفت نحوي، وهو داخل في بوابة رأس الناقورة وقال: «الله يخليك، يا خيّا، شُقّ[١٢] على سعاد».

وبعد ثلاثة أشهر جاءني نعيه وأنه أوصى بأن يرسلوا إليّ عصاه ذات الأطواق لكي أنصبها فوق ضريح سعاد بالقرب من شاهد الضريح. وأنهم أرسلوا هذا الميراث مع «أحدهم». وها أنا قاعد أنتظر تَسَلُّم العصا ذات الأطواق. ولسبب لم يحِنْ أوان البوح به عزمت على نفسي ألا أشقّ على ضريح سعاد بل أن أذهب إلى مصبّ النعامين، أو إلى الشاطئ المسمى حتى يومنا هذا باسم الملاّحات، وأُلقي في عُرض البحر بالعصا

ذات الأطواق بعد أن أُثقل مضربها برصاص مصبوب أو بحجر غير مثقوب. أزمعت أمري على تنفيذ هذا الطقس عند الغروب.

أقف وحيداً على رمل الملاّحات أمام الشمس الغاربة. أقف حافي القدمين مشمِّرًا عن قدميّ «إلى ما فوق الركبتين».

وأنصب العصا عمودية أمام صدري وما فوقه حتى ما فوق الرأس. وأنفخ من روحي نفخات ثلاثًا في الدوائر الثلاث.

في الدائرة الأُولى باسم سعاد الأُولى.

وفي الدائرة الثالثة باسم سعاد الثانية.

وفي الدائرة الوسيطة باسم سرايا بنت الغول.

«فانهم قالوا إن بطنًا من أرض الجزيرة تخمَّرت فيه طينة على مرّ السنين والأعوام حتى امتزج فيها الحارّ بالبارد والرطب باليابس امتزاج التكافؤ وتعادل في القوى.. وكان الوسط منها أعدل ما فيها وأتمّه مشابهة بمزاج الإنسان.. فتعلق به عند ذلك الروح الذي هو من أمر الله تعالى.. إذ قد تبيَّن أن هذا الروح دائم الفيضان من عند الله عزّ وجلّ. وأنه بمنزلة نور الشمس الذي هو دائم الفيضان على العالم»[١٣].

كان أخي جواد الوحيد من بيننا من ماتت عنه زوجته فتزوَّج ثانية. وتزوَّج ابنة عمته – أجمل النساء الشقراوات وأطولهن قامة في عالمي المنخفض. وأنجبت له ثلاثة أولاد، صبيّين وصبيّة

شقراء بيضاء طبق الأصل عمّا تخيَّلنا سعاد الدلوعة التي غرقت في مياه الملاّحات.

إلاّ أنها ماتت محترقة بصدمة كهربائية وهي في مطلع الصبا وميعته.

كنَّا نربط سلك الراديو الأرضي بسياج الشرفة الحديدي وهمًا منّا بأن الحديد أفضل من تراب الأرض في امتصاص الخشخشة من الصوت وتنقية الصوت منه فيأتي صافيًا.

فحدث، في قيلولة ذات يوم مشمس وممطر، خلل في سلك في جهاز الراديو. وكانت الصبية سعاد خارجة لتوِّها من البيت لتنادي على صبية نورية[١٤] كانت تبيع الزعرور البري الأحمر كالعنّاب. وكانت سعاد تحب الزعرور وتحب العنّاب.

اتّكأت على سياج الشرفة الحديدي بيديها الاثنتين دفعة واحدة. وهمَّت بأن تنادي على بائعة الزعرور. فلم نسمع منها سوى صرخة «ماما» واحدة. فتراكضنا نحوها مخلِّفين وراءَنا صوت أسمهان وهي تغنّي «واحكي وأشكي وأبكي بلكي، يا غزالي، يرق قلبك». فلم نجرؤ على الاقتراب منها إلاّ بعد أن عاد والدها، أخي جواد، وأسكت صوت المرحومة أسمهان.

وشاهدت بائعة الزعرور تنثر حولها ما ملأت به قفَّتها من زعرور. ودارت بائعة الزعرور على نفسها عدَّة دورات ثم

وجدتها في وسطنا تحتضن الصبية. فاختطفتها والدتها منها وعدنا بها إلى داخل الدار. وبقيت النورية فوق الشُّرفة وحيدة. وآخر ما شاهدتُ من حالها أنها أقعت على أرض الشُّرفة وأسندت رأسها إلى يدها اليمنى ووضعت قفَّتها الفارغة أمامها.

ولما اكتمل عقد المأتم، وجلست بين الرجال، هممت بالقيام وبالخروج إلى الشرفة. فجحظني الوالد وصاح: «لوين؟». فبقيت قاعداً في مكاني قعدة صنم.

وما زال قبر الصبيّة سعاد قائمًا مصونًا في مواجهة الداخل من باب المقبرة «الجديدة»، المصونة والمشجَّرة على السفح الجنوبي من الكرمل: البحر من أمامها وخرائب دير السيَّاح من ورائها وليس لها، والله، إلاّ الصبر حتى تبتلعها مباني حيفا كما ابتلعت من قبلها المقابر القديمة التي كانت قائمة، حتى الأربعينيات، في ما كان يعرف بأنه مشارف حيفا القديمة – إلى جنوب الحد الفاصل بين حيفا العتيقة وحيفا الجديدة. وهو خط السكة الحديدية.

وبعد غيبة طويلة، امتدت خمسة وثلاثين عامًا، من العام ١٩٤٨ إلى العام ١٩٨٣، عاد أخي جواد وشقّ على ابنته الصبية سعاد. وكنت في معيَّته. وقادني إلى قبرها بلا تردُّد. فوجدناه حيًّا يرزق بشجيرات من الفُلّ الأبيض تحيط به من

كل جانب. وعلى القبر قفّة عتيقة امتلأت بطاقة سخيَّة من الورد الأحمر، نضر كأنه ابن يومه. فشكرني أخي على هذه اللفتة ظانًّا أنني سبقته وسجَّيتها على قبر الصبية.

وبدا كأنّه تذكر شيئًا ثم غاب عنه هذا الشيء. وهمهم بكلام غير مفهوم صَحّفْتُه ما بين النوريّة والقفَّة.

فأطرقت مذهولاً وأنا أسترق النّظر نحو عيني حارس المقبرة. فأمعن الحارس النّظر في عيني مستعجبًا ما بدا عَلَيّ من جهل.

وكان أخي قد حفر اسم ابنته على شاهد قبرها وطلاه بماء الذهب. فوجده وقد مَوّهَه الزمن. فطلب العودة عليه بماء الذهب. فتعهَّد الحارس بأن يعود عليه بماء الذهب مجبولاً بالماورد[١٥] هذه المرَّة. فدعوته ليأتي إليّ في مكتبي في الصحيفة كي أنقده حقَّه وأتأكّد من إنجاز وعده.

واستحلفني أخي جواد قائلا: «الله يخلّيك، يا خيّا، عُد عليه».

وبعد أُسبوع عاد غراب البين وحمله وألقاه على رمال الغربة تذروه الرياح أثرًا بعد عين.

«وبكتب إسمك، يا حبيبي، عا رمل الطريق»[١٦].

وأمّا حارس المقبرة فجاءَني، بعد يومين أو ثلاثة أيام من رحيل أخي تحت جناحي غراب البين للمرّة الثانية والأخيرة، وأبلغني بأنه عاد على طلاء اسمها بماء الذهب وبالماورد.

فاستزدته بنظرات من عينيَّ عطّرتها بماء الاستعطاف منه أن يزيدني. فأبلغني أن امرأة لم يرها من قبل، ذابلة العود في خريف حياتها، سبقتنا إلى القبر في صباح ذلك اليوم وقد أسبغت على رأسها خمارًا أسود شفَّافًا زاد من مهابتها هيبة. أسجت فوقه قفّة الورد الأحمر ثم عادت أدراجها عبر الطرف الجبلي من المقبرة. وادّعى أنه ظل واقفًا يراقبها حتى اختفت عن ناظريه بين صنوبر الكرمل وبلوط الكرمل.

– سـرايـا!

لم أهتف باسمها أمام حارس المقبرة. بل قبضت صدري عليه على الرغم من يقيني أنه ما كان من الممكن أن يسبقنا في اليوم نفسه إلى قبر الصَّبية، من بين أهلي وعشيرتي الباقين هنا صبرًا جميلاً، سوى سرايا.

– سـرايـا!

ها أنا أهتف باسمها الآن، وأنا أفشي لك بسرّي الحي، هتافًا باطنيًّا أشبه بالاحتراق الداخلي الذي غَيّر وجه العالم – في محرِّك سيّارة أو طيَّارة أو حاصدة أو صاروخ عابر إلى المريخ – لعله يغيِّر عالمي الذي عدت إليه حين لم يبق لي من العوالم سواه.

ها أنا أُقهقه قهقهة باطنية، أشبه بانفجارات العطل في ذلك المحرِّك. مرارًا سمعت مثل هذه القهقهة تخرج من فوهة ماسورة

الغاز العادم في سيَّارتي العتيقة. فتغدو السيَّارة كومة من الحديد الصلب لا حراك فيه ولا نفع منه. فأعود إلى المشي على قدمَيّ الاثنتين مثلما خلقني ربي ودَرّجتني الوالدة.

فهل، حقًّا، أنا الذي عاد أم عادت سرايا؟

وهل لي من مناص من العودة إلى المشي على قدَمَيَّ الاثنتين، بقلبي أنا وبصدري أنا وبرأسي أنا وبعينيّ الاثنتين، بعد أن تعطّلت سيارتي العتيقة وظل الشارع الطويل أمامي طويلاً طويلاً؟!

وكلّما يأتيني مصير الصبيّة سعاد يأتيني مصير فتية ثلاثة شفاعمريين شق الطريق العريض الجديد – من الناصرة إلى عكا – أرض عائلتهم التي كانوا درجوا على اللعب فيها وتطيير الطيَّارات الورقية والركض، ركض الغزلان، فريقين «عسكر وحراميّة». فلم يبالوا بهذا الشقّ العريض من الزِّفت والقطران. فدهمتهم سيارات كانت تسير بسرعة تخطف الأبصار. فخطفت أعمارهم واحدًا وراء الآخر في مدَّة شهر واحد حتى تعرّف بقية الفتيان على الحدود الجديدة.

لماذا لم يحفروا نفقًا تحت الشارع العريض يعبر فيه صبية شفاعمرو وصباياها من أرضهم إلى أرضهم آمنين؟!

وهل من نفق تحت الشوارع العريضة نلتقي فيه آمنين، يا سرايا؟!

(٢)

ومشيت في درب الآلام.

كان هاجس خفيّ وسوس في صدري أن لا طائل من انتظاري عودة العصا ذات الأطواق فأفقد روحي إلى الأبد.

فلو أقمت قاعداً أنتظر مجيئها لانتهت دورة حياتي الحالية دون أن أعود على أوّل الدَّرب الذي قادني إلى موعدي الأوّل مع سرايا.

موعدي الأول؟

«فيأخذ سفرجلة أو رمّانة أو تفّاحة، أو ما شاء الله من الثمار. فيكسرها. فتخرج منها جارية حوراء عيناء تبرقُ (تتحيّر) لحُسنها حوريات الجنان. فتقول: من أنت، يا عبد الله؟ فيقول: أنا فلان ابن فلان. فتقول: إني أُمَنّى بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة»[١٧].

ولو خُيِّرت لما اخترت أن تنزل روحي، في الدورة القادمة، إلاّ في هذه النواحي. ولكن، ما أدراني أنني سوف أُخَيَّر؟

وما حاجتي إلى العصا ذات الأطواق ومعي بَرّي وبحري وسمائي؟!

شعرت بالمسرَّة وبالحسرة في وقت معًا. غافلت شقائي وغبطتُ حالي على أنني قادر، بعد، على الخُلُوّ ببري وببحري

وبسمائي وأن أخلد إلى معالم صباي بحواسّي الخمس جميعًا. وتحسَّرت على زملائي الغائبين أنهم لا يستطيعون هذا الأمر إلا استغابة. فلا تقولوا، يا أحبائي: «لم يبق شيء نخسره!» فوالله إن الوقوف على الأطلال، أمام بلوطة محرَّمة أو أمام صخرة في الحبس الانفرادي، لأفضل من حياة القصور المشيَّدة فوق ضباب الغربة – حياة أنشف من أرض المحرقة[١٨].

فمشيت في درب الآلام.

شَقِّيت على معالم الصبا وأطلاله الباقية – تلك التي تحولت عنَّا وتلك التي لم يبق أمام عيني منها سوى شجرة بلوط مستحية أو صخرة مستوحشة على شاطئ البحر أبت أن تستحي.

واستنطقتُ هذه المعالم.

استحلفتها أن تدلي لي ضفيرة من ضفاير شعرها فأتعمشق عليها وأصعد، ذراعًا ذراعًا، من قعر بير النسيان إلى فوق، ثم إلى فوق، ثم إلى فوق، ذراعًا ذراعًا. سوف أشد حيلي وأشد حيلي حتى أبلغ فتحة البير.

وفي نهاية الصعود والارتقاء ستمد إليّ سرايا يدها وتشيلني دفعة واحدة.

– سرايا، يا بنت الغول، دلّي لي شعرك لأطول!

ماذا فَعَلَتْ بنا حكمة كليلة ودمنة؟![١٩]

كان عمي إبراهيم، «أبو سرايا»، أول من أثار الظنون في نفسي بجدوى هذه الحكمة. وقال: «ليس عن عبث وُضِعَت على لسان البهائم. فإن أكثرها، إن صلح، لا يصلح إلا للبهائم». وكان دليله ما آل إليه من مصير تعس مترجمها إلى العربية «روزبه» عبد الله بن المقفع. ولكننا لم نأبه لما تقوّله عمي إبراهيم بل وضعنا «رووسنا بين الروس وقلنا يا قطّاع الرووس»!

هل تذكرين، يا سرايا، حكاية الجرذين، – الأسود والأبيض – وكوارة العسل؟!

حلمكم عَلَيّ، يا صبايا ويا صِبية شعبي، فإني ناقل إليكم هذه الحكمة نقلاً مباشراً عن ترجمة المغدور روزبه بن المقفع:

«فالتمست للإنسان مثلاً. فإذا مثله مثل رجل نجا من خوف فيل هائج إلى بئر. فتدلّى فيها. وتعلّق بغصنين كانا على سمائها. فوقعت رجلاه على شيء في طَيِّ البئر. فإذا حيّاتٌ أربع قد أخرجن رؤوسهن من مجاحرهنّ. ثم نظر فإذا في قاع البئر تنّين فاتح فاه منتظر له أن يقع فيأخذه. فرفع بصره إلى الغصنين. فإذا في أصلهما جُرذان – أسود وأبيض – وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران. فبينما هو في النّظر لأمره والاهتمام لنفسه إذ أبصر قريبًا منه كُوّارة فيها عسل نحل. فذاق العسل. فشغلته حلاوته وألهته لذّته عن الفكرة في

شيء من أمره. ولم يذكر أن الجرذين دائبان في قطع الغصنين ومتى انقطعا وقع على التنين».

أما أنا فسأشد حيلي وأتعمشق على الضفيرة صاعداً إلى فوق. وستمد إليّ سرايا يدها وتشيلني دفعة واحدة: «هيلا هوپ»!

استنطقت أثرًا بعد عين.

استنطقت شجرة بلوط متفرِّدة على جبين وادي العشاق.

فتلقَّاني رجل يهودي مُسِنّ في مثل عمري وقال: «لولا أنني أعرفك وأعرف أنك لا تحسن سوى الكتابة لما خلّيتك تطأ أرض حديقتي الخاصة».

فخلّيته تحت البلوطة وهربت إلى البحر نازلاً في «درب الرعيان» الضيِّق مخترقًا أشواك العلّيق والخرفيش الباقية تنتظر المعزى.

وتسطع رأسي بارقة!

كنت أُحسن النُّزول في هذا الدرب قبل هروبي إلى الكتابة.

كانت سرايا تأخذ بيدي فنخترق دربًا ترابيًا ضيِّقًا ومتعرِّجًا ننزل فيه حتى شاطئ البحر أمام وادي العشاق – هذا الدرب نفسه.

وأطأ التراب نفسه. أمزج دمي، مرة أُخرى، بأسنّة العلّيق

نفسها. وأعتنقها، لتفصدني! لتشبع مني فإنني عشت جائعًا إليها! ما أروع النهاية التي تعيدك إلى البداية!

ونمشي على رمل الشَّط حافيين. ونتّجه نحو الشرق، على رمل الشاطئ تحت «تلّ السمك»[٢٠]. وتغطس في بركة طبيعية مستديرة استدارة عجيبة كأنها البير. وأقف على حافة البركة دون أن أنزل معها. وأخاف عليها من الغرق. فترشّني برذاذ مائها وتمسح دموعها. ولا أرضى بأن أصحبها إلى هذا الشط إلاّ في الخريف وبانتهاء العطلة الصيفية. فأضمن ألا نلتقي واحدًا من أقراني. أما في الصيف فأصحبهم وأنزل معهم في البركة. وترشّني برذاذ الماء صبايا أُخريات. وتكون نورية صغيرة قد وضعت بين قدميها قفّتها المملوءة بالبقول البريَّة وأسندت رأسها إلى كفِّها اليمنى وجلست فوق قمة «تل السمك» تنتظر.

مشيت في درب الآلام. شقَّيت على تلك البركة فوجدت الرمل قد غطاها إلا شبرًا أو شبرين من ماء البحر.

ومشيت في درب الآلام.

وشقَّيت على الصخرة الوحيدة المستوحشة على شط خليج عكا[٢١]. أصبح ذلك الشط مقفلاً. فوقفت على كاسح الأمواج أصطاد السمك وأستنطق الوحشة.

«أين ضوضاء ذلك الخلق فيها

أين أسواقها ذوات الزحام

رُبّ قـوم بـاتـوا بـأجـمـع شـمـلٍ
تـركـوا شـمـلـهـم بـغـيـر نـظـام»[٢٢].

وحلمتُ أنني كتبت رواية عن تاريخ هذه الصخرة التي أبت أن تيأس.

فجاءت هذه الاعترافات.

مشيت في درب الآلام وشقّيت على الغرفة التي وُلدت فيها. لم أستنطقها لأنني وجدتها صمّاء بكماء مقفلة الفم بحائط من الباطون.

فقفلت راجعًا إلى هذه «الخُرّافيّة».

مشيت في درب الآلام وحيدًا لا يصحبني إنس ولا جن. ولا ملك الموت هذه المرّة. وغيابه أنقذه من أطواقه ومساطره. فإنه لا يتخيَّله إلا راكبًا مسطرة كبيرة ركوب السَّاحرة الإفرنجية على ظهر عصا مكنسة. يتشبَّث بعصا المكنسة بيده اليمنى ويحمل باليسرى عصا أُخرى يلوح بها ويشنّ عليه الغارة: «المسطرة، المسطرة»! طُز[٢٣] على المسطرة وعلى كل المساطر من قبلها ومن بعدها! ويتخيَّله ناقدًا مشهور الاسم في عالمنا العربي. ولولا خوفه على هذه «الخُرَّافيّة» أن تبقى من بعده إلى من بعده، فيبقى ذكره، لذكر اسمه.

فهو لا يكتب، يا ملك الموت، إلا مدفوعًا بقوّة الجاذبية: حجرًا انفلت من موقعه في قمّة من قمم الكرمل. فأخذ ينحدر

إلى القاع متسارعًا في انحداره، أحيانًا، ومنحرفًا عن مسراه مرتطمًا بحائل في طريقه، أحيانًا. فإما أن ينزل على رأس مخلوق بردًا وسلامًا، وإما أن يخترقه دون أن يزحزحه عن مكانه أو أن يستقر حجر أساس لخلق جديد – عمارة يبنيها لكم بعرق جبينه وبهامته[٢٤] التي لن تفكّ عنكم بعد عودة روحه إلى باريها.

قال: وأما هامتي فسوف تحلِّق في فناء البحر. وتحت رمال الشاطئ الجنوبي من الكرمل، تحت «دير السياح»، سيدفنونني – في الموقع الذي سَجّت فيه سرايا قفتها المملوءَة بالورود النضرة فوق ضريح سعاد حبيبة الزعرور والعنّاب والنّورية الصغيرة بائعة الزعرور والعنّاب.

ويُسَجَّى على ظهر قارب الصيد. ويقوم «أبو الدُّخُل» و«الشيخ» و«أبو يوسف» و«أبو زاهي» و«أبو إليا» و«أبو عامر»[٢٥] بحشد قافلة من قوارب الصيد وراء قاربه. ويطلق «أبو الدُّخُل» صفارة مَرْكَبِهِ إيذانًا ببدء رحلة العودة. وتعبر القافلة رأس الكرمل ثم تدور نحو شاطئ الكرمل الجنوبي. وترسو القافلة وراء سد المسبح على شاطئ «العزيزية» القريب من مصب وادي العشاق. ويقطعون الشارع مشيًا على الأقدام حتى المدافن الجديدة. فالمسافة قصيرة. والهمَّة عالية. فيجدون «أبا مبدّا» في استقبالهم وأفرادًا قلائل ممّن بقي حافظًا للزّمام

في هذا الزمان الحزون.

ويتحوَّلون بأنظارهم إلى الشمال، في اتجاه «دير السياح». ويغضّون أطرافهم عن سيِّدة متَّشحة بالسواد الشفَّاف تحمل بين يديها قفَّة مملوءَة بالورود النضرة وتنتظر أن تخلو المدافن من المشيِّعين. فيشير «أبو مبدّا» لمن حوله إشارة مؤدَّبة أن انصرفوا. ويكون أوّل المنصرفين.

فتنزل سرايا من الجبل.

(٣)

قال: وقع «المكتوب» في نهاية العطلة الصيفية من العام ١٩٣٣، إن لم تخني الذاكرة. فرحت أهيم على وجهي بحثًا عن «كوارة العسل».

فليس سوى أمير ابن أمير مَنْ يُعطى جنِّية تظهر له في هيئة ضفدع. فيخفيها تحت طيَّات ثوبه إلى جوار صدره. فإذا جنّ الليل أوى إلى سريره وأخرجها من جلدها حورية من حور الجنان وهو «مُخيّرٌ في تكوينها كما يشاء»[٢٦].

كانوا حفّظوه، عن ظهر قلب، أنْ «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان». ولكنّه وجد الخبز نفسه يقلب لهم ظهر المِجَنّ. فما حاجتهم إلى «كوارة عسل»؟ وإذا أووا إلى فراشهم ناموا «نوم الحرّاثين» لا حِراك في أيديهم ليخلعوا جلد الضفدع عن جنيّتهم. ولا جنيّة لهم إلا ذلك التنّين.

ها هو حجره، الساقط من أعلى الكرمل، يرتطم بعائق. فينحرف عن مسار تدحرجه: إياكم، يا أحبَّتي الغائبين، أن ترتضوا من الوطن بجنيّة تأوون بها إلى سرائركم وتحسبوا أن الواحد منكم «مخيَّر في تكوينها كما يشاء». فالجنّة لم تنسب إلا إلى عدن. وأمّا سرايا، فعلى الرغم من مزابل النسيان، فمن لحمٍ ودم!

ولما وجدتهم لا مهرب لهم سوى أن يحملوا معهم ذلك التنِّين، إلى نهر من أنهار الخلد، أخفيتها عنهم خوفًا عليها من أن يُلْقُوا بها خارج العتبة مثلما كانت الوالدة تلقي، في الزمن الأول، بما كان عمي إبراهيم يدسّه في يدي من هداياه العجيبة خلسة عنها، وكنت أُخفيها في فتحة المزراب المهمل في «غرفة البير» التي حوّلناها، بعد ارتباط منزلنا بشبكة المياه العمومية، إلى غرفة خارجية جعلتها مكتبتي ومكتم أسراري.

وقليلاً ما جَرُؤَت الصبية النوريّة، بائعة الزعرور والعنّاب، على اللحاق بي إلى «غرفة البير». فأُغلق بابها الخشبي علينا. فإذا هممت بالخروج وجدتها متلكئة. فأُغلق الباب دونها أو أتلكّأ معها. أو أسمع صوت الوالدة تناديني: «ما تفعل؟» فيرتفع صوت النورية بالغناء:

«وَيّوش صار لأيوب يومتْ بلوته
سابع سنين وبنت عمو تخدمُه»[٢٧]

فأَرد على الوالدة: «أُسجل أغانيها»! فتهمهم الوالدة: «أَما سجلتها وشبعت تسجيلاً؟!». فتحمل بائعة الزعرور والعنّاب قفّتها وتصعد الطريق الترابي إلى دار أخي جواد، فوق دارنا، وتنادي على «السِّت سعاد» الصغيرة. ثم تذبل وترجع أدراجها.

كان أَشد ما يضنيها ويذبلها إخفاء صراحتها الفطرية. فقد

كانت صريحة صراحة شقائق النّعمان الحمراء التي تكشف أَسرار الربيع دفعة واحدة فتفقد برهان طلوعها فتذبل وتموت في اليوم نفسه.

لم تكن عودتهم إلى مقاعد الدراسة عَوْدَةً عادية بعد تلك العطلة الصيفية. وكانوا يسمُّونها «الفرصة الكبيرة». كان عليهم الانتقال من مدرسة قديمة إلى مدرسة جديدة.

أما القديمة فكانت «مدرسة البرج» – البرج الذي شيَّده ظاهر العمر الزيداني في العام ١٧٦٠ فوق هضبة من هضاب الكرمل الشرقي مشرفة على «حيفا الجديدة» – شارع ستانتون فسوق الشوام فساحة الحناطير فشارع الملوك فخليج عكا حيث مصب نهر المُقَطّع – دفعًا لغائلة القراصنة القادمين من مالطة أو من جنوب إيطاليا.

وفي العام ١٧٩٩ أقام فيه نابليون بوناپارت بعد أن رَدّتْهُ أسوار عكا عنها. وفي العام ١٨٣٧ أقام فيه إبراهيم باشا (الأرنؤوطي) ليلة أو ليلتين في طريقه من مصر إلى لبنان وسوريا. وحفّظوهم هذا التاريخ في ابتدائية «البرج» حتى يتحمَّلوا عتمة غرفها المعتمة والمتداعية الجدران ذوات الكُوى العالية والضيِّقة وردهاتها التي كانت، في زمن العزّ، إسطبلات. وكان فناؤه الداخلي، الذي كانوا يَصطفّون فيه ويَمرحون، ترابيًّا ضيِّقًا محاطًا بالأسوار من كل جانب. وحين

مشى في درب الآلام، ينبش عن معالم الصبا بلا تلك العصا ذات الأطواق، وقف في شارع ستانتون تحت تلك الأسوار فوجد رجال شرطة يُطِلُّون من فوقها فاكتفى بهذا المنظر.

وكان سكان «حيفا الجديدة»، أو «التحتا»، يسمُّونه باسم «برج السلام». وبعضهم باسم «برج أبو سلام». وكانوا يسمُّون مدرسته بهذا الاسم، تارة، وبذاك أُخرى. ويبدو لي أن هذا الاسم علق بذهني منذ ذلك الزمن السحيق. حتى إذا رُزقت بولد ذكر سميته باسم «سلام». فدُعيت بأبي سلام.. كنت علمت، منذ الصغر، بأنني لن أكون أكثر مما كنت – لا بوناپارت ولا باشا – كلاّ وحاشا!

وأمّا «المدرسة الجديدة» فهي «مدرسة الحكومة الثانوية» القائمة، حتى يومنا هذا، على الطرف الغربي من شارع الجبل – في قرنته مع «جادة الكرمل»، زاوية قائمة. وكانت حديثة البناء وحديثة الأثاث ومسوّرة على ساحة داخلية فسيحة قام في طرفها الغربي سبيل ماء متعدِّد الحنفيات. ولأمر ما تُركت مفتوحة يسيل منها الماء ليل نهار. ولم نحاول إغلاقها. ولو حاولنا لما انغلقت كأنه «مال دولة». وهو كذلك. وكان الطلاب المسلمون، من بيننا، يَدّعُون في رمضان أنهم يشربون ماء السبيل سهواً. ويُنحون باللائمة على الحنفيات التي لا تنغلق. ولم يطالبوا بحبس ماء الشرب عن المدرسة في رمضان

لأنّنا كنا مشغولين، في ذلك الزمان الواضح المعالم، بإطلاق سراح هذا المعلم أو أخيه من الحبس أَو من حبل الإعدام[٢٨]. تردَّدت، حتى الآن، في البوح بهذه الذكرى خوفًا من تنبُّه زملائي الأُصوليين إلى استمرار هذا التسيُّب. فيفرضون على مدارس أحفادي وأولادهم شيوخًا يقفون أمام الحنفيات يفحصون الهُويّات، مثلما فَرَضَ أبناءُ عمومتهم حاخاماتهم على مسالخنا التي نذبح فيها وننتف الدجاج، حذوك النعل بالنعل وبأثواب السُّترة وما إليها. وجَدّنا واحد. وكلُّنا من آدم وحواء. واختلفنا ولم نتّفق إلاّ عليها. حتى جاءَت شركة «ميكوروت» للمياه فكفتنا مؤونة هذا القتال فعطّشتنا في شعبان وفي رمضان.

كانت عائلة صاحبنا مقيمة، بعد، في وادي النسناس – في البيت الذي سقط فيه رأسه. فانحصر عالمه في بضع خطوات كان يخطوها إلى شارع الخوري. فيصعد منه مسافة كيلومتر أو أقل قليلاً فيكون في «مدرسة البرج». فإذا جاء العصر ورُنّ جرس الانصراف، قفل راجعًا في الدرب نفسه إلى بيوت الوادي المتراصّة، الغرفة في قفا الغرفة، يرصُّون أجسامهم فيها حيثما اتفق هذا الأمر لهم. ويكون باب واحد شراكة على مسكنين أو ثلاثة. وقد لا تجد عائلةٌ طريقًا إلى غرفتها إلا بالدخول إلى غرفة أُخرى ارتُصّتْ فوق أرضها

أجساد عائلة من الجيران. وقد يكون أحد سكان هذا الوادي هو أول من قال: «الدين لله أما الوطن فللجميع». وأما سكان وادي النسناس فلم يُعْطَوْا في هذا الوطن من فسحة يتبحبحون بها. فأحالوا موقع دينهم على رب العالمين: لا فرق بين مسلم أو مسيحي إلاّ في فصل الدين. وانضم عبد الله إلى أقرانه المسلمين في حفظ القرآن الكريم.

ولا في «أرض الكنيسة» المواجهة للوادي. ولا يفصل بينهما سوى شارع الخوري. فكانوا يزوغون إليها في عودتهم من «مدرسة البرج». وكانت ورشة بناء الكنيسة الجديدة، القائمة حتى يومنا هذا، على أشدّها. وكان «الحوارنة»، لا «الخوارنة» – من سكان حوران – هم عمالها وبناؤوها لرخص أُجورهم اليومية. وكانوا يأتون إلى حيفا بقضّهم وبقضيضهم، أي مع نسائهم وأطفالهم وحُصُرهم التي هي مناماتهم. وفي الصيف كانوا يبيتون «تحت السماء والطارق». وأمّا في الشتاء ففي كنف ما شيَّدوه من أساسات الأبنية وجدرانها العارية التي استأجروهم لتشييدها. قال: فوجدنا في شقائهم عزاء لنا عن شقائنا. فقد اختلطوا، مثلنا مثلهم، خلط الحابل بالنّابل. فبُحنا لهم بأسرارنا وباحوا لنا بأسرارهم. وكنّا نتكاذب: نستغيب مدير مدرستنا ونشتمه. فلا يجدون من يستغيبونه ويشتمونه سوى القسيس. فما كانوا يشاهدون

أمامهم من زاجر عن توسيخ أو عن تدنيس سوى القسيس.

وكان الولد فرحان، أخو صبحة، يهزج فنردِّد وراءَه نصارى ومسلمين:

« والـقـسـيـس حـمـارُه ابـلـيـس

قـولـي مـعـي، يـا صَـبْـحـة، قـولـي »!

وكانا توأمين. وكانت لا تفارقه حيثما أقام أو مَشَى. فإذا وقع وقعت وراءَه وارتَضّتْ ركبتها. فتشمِّر عن ساقها وترسم بإصبعها عليه شارة الصليب. وتتمتم ويتمتم وراءَها أن « يا صليب النصراني، طَيِّب رِجلي الخدرانه ».

ونَسِيَتْ سرايا وَجَع ساقها وأخذت تضحك « ضحكة سرايا » حين طالت قعدتنا فوق الصخرة، فعالَجَتْ قدميها كي تقف فوَجَدَت إحدى ساقيها مخدّرة فصاحت من شدّة الألم فَرَسَمْتُ على ساقها، بإصبعي، علامة الصليب وتمتمتُ أنْ « يا صليب النصراني، طَيِّب رجلها الخدرانه ».

فأَخذت يدي بيدها وقفزت عن الصخرة وأنا وراءَها وغسلت ساقها المخدَّرة بماء العين ثم فركتها بحليب عشبة « السُنّيرة » ورقصت « رقصة الزعرورة » وهي تغني:

« هيك مشق الزعرورة، يا يمّه هيك ».

– متى كان ذلك؟

(٤)

قال: كان الانتقال من مدرسة قديمة إلى مدرسة جديدة يثير مشاعر القلق في النّفس البكر. فكيف به وقد جاء فيما كان بيتنا خارجًا من أُسبوع عزاء بأوّل وفاة وقعت فيه منذ أن ولدتني أُمي؟!

وفاة الزوجة الأُولى لأوّل من أحضر امرأة غريبة إلى بيتنا من إخوتي الكبار. وكان ثالثهم في مدارج الشباب أوسعهم دنيا وأضيقهم دينًا – أخي جواد نفسه!

ماتت وهي تضع جنينها البكر. فسجَّيناها في غرفة الدار الوحيدة، على السرير الحديدي الوحيد في بيتنا. وكانت أحضرته معها «جهازًا». وكان في الغرفة نافذة منخفضة تطلّ على الزقاق. اجتمع أمامها أولاد الحارة، من أعرف ومن لا أعرف. أنا في الداخل وهم في الخارج. ولكنَّهم شاهدوا ما شاهدتُ دون من حاجة إلى مَدّ أعناقهم أو قاماتهم التي سَوّتْها مع الأرض عتمة بيوتهم وعتمة أزقّتهم. ولا أراهم الآن، بعينَيْ ذاكرتي، إلاّ أقزامًا متشابهين في القِصَر وفي الضمور وعيونهم واسعة قسرًا – حتى تقدر على تمييز الأشياء في هذه العتمة المقيمة. وأنا واحد منهم. وكأن من بنوا بيوت وادي النسناس تركوا فتحات نوافذها منخفضة لتكون على مقاسهم، في

الطرف الداخلي، وعلى مقاس أولادهم في طرفها الخارجي: أولاد حارة إنْ في الدار وإنْ في الحارة.

وقفنا مذهولين، أنا في الداخل وهم في الخارج. فأوهمني هذا الفارق المنخفض في الموقع الجغرافي أنني رأيت في عيونهم حسدًا. فَصِرْتُ، كما أُم العروس، فاضيًا مشغولاً. وبين الصّرخة والصّرخة، الخارجة من أفواه الندّابات، كنت أخرج إليهم وأُبعدهم عن المأتم الذي هو «مأتمي». ثم أعود أدراجي فيعودون إلى الاحتشاد. فما شأنهم؟ وفيما بعد قالت لي الوالدة إنني كنت أدفعهم بعيداً عن النافذة وأنا أصيح: «الميت ليس لكم بل لي»!

كان اسمها بديعة. وكانت تكبر زوجها سنًّا – بهذا همست الوالدة في آذاننا. وكانت «من القدس»، متعلِّمة ومعلِّمة. وكان يناديها بيا معلمتي. وكنّا نهابها كما لو أنها قادمة من كوكب آخر أو أنها لعبة جديدة متحرِّكة بجهل القوة التي تحرِّكها. أحضرها، ذات مساء، إلى بيتنا وقال: «خطيبتي من القدس».

فكيف تتوقَّف هذه اللعبة الغريبة عن الحركة على الرغم من أنها «من القدس» ومتعلِّمة ومعلِّمة؟

كان جواد «عربجيًّا» على حنطور يقف في ساحة الحناطير. وكان القسيس، صاحب أخي صبحة، يدلّه على الحُجاج

الخواجات فيكترون حنطوره «سكارسا»[٢٩] لعدة أسابيع سياحة بهم إلى حيث دلّتهم خُطط عن البلاد المقدّسة جلبوها معهم من بلدانهم فيما وراء بحر حيفا وعكا ورأس الناقورة. وحين شرعت في هذه «الخُرّافية» قَلّبْتُ ما في مكتبتي من كتب حتى لا تخونني الذاكرة. فوجدت في كتاب «تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين»، للدكتور ألكس كرمل، صورة فوتوجرافية عن طريق يافا – حيفا التُّرابي – «في بداية هذا القرن تقريبًا» ما بين الموارس وهضبة تل السمك تحت رأس الكرمل مباشرة. وظهر على الطريق، في هذه الصورة الفوتوجرافية، حنطور وقف إلى جانبه سائح إفرنجي بقبعته «الكاسكيت» وبجاكتته البيضاء. وفوق مقعد السائق ظهرت صورة صاحب الحنطور. فإذا هو أخي جواد، «زوج المعلّمة»، بطربوشه الأحمر وبجاكتته السوداء وقميصه الروزا المطرَّز ذي الأزرار المتراصَّة – أخي بقامته الفارعة والنحيلة التي كنت أوهمت نفسي أنني سأشبّ وأشيخ على مقاسها. ها أنا أُمعن النَّظر في هذه الصورة فتزداد قناعتي بأن الصورة هي صورة أخي وحنطوره من قبل ستِّين عامًا كما ذكر الدكتور ألكس كرمل – «في بداية هذا القرن تقريبًا». لم ألتق الدكتور ألكس كرمل حتى الآن، مع أنه يعمل محاضرًا في جامعة حيفا. وأذكره، وكتابه القيِّم، في هذه «الخُرّافيّة» عرفانًا بجميله علينا

وكي يبقى ذكره ما بقيت هذه «الخُرَّافيّة» وتبقى الصورة. وهذه المعادلة، التى ذكرتُها أعلاه، هي من المعادلات التي قال عنها ألبرت أينشتاين إنها «شيء يختص بالخلود»: تمضي فتبقى السِّيرة فتبقى الصورة!

وفي صباح اليوم السابع، على العزاء، شاهدت وجهي في المرآة لأول مرة في حياتي: وجهي أنا. عينيّ أنا وهذا «الأنا» الذي يبحلق بي من داخل هاتين العينين لأوّل مرّة!

وقفت أمام المرآة الوحيدة في بيتنا، في غرفة النوم الوحيدة في بيتنا، أُسرح شعري تسريحة تليق بانتقالي إلى مدرسة جديدة – عالم جديد. فلا تُرضيني التسريحة. فأعود عليها مرارًا وتكرارًا كما فعلت، فيما بعد، برواياتي: أُسرِّح الذاكرة من تحت أقدام الزمن. ثم أَسْرَحُ بها، المرّة تلو المرّة، حتى أرضى بهذه التسريحة. وما كنت أرضى بل كنت أقنط إلى حجمي.

كنت مُقْدِمًا، في ذلك الصباح، على ما خُيل إليّ أنّه طفرة في حياتي – من الطفولة إلى الرجولة. ولما لما يطرّ شاربي التجأت إلى شعر رأسي دليلاً حسِّيًّا على هذه الطفرة.

ولكنه أبى واستكبر واستعصى على المشط. فأُسقط في يدي فسقط نظر عينيّ إلى عينيّ. ألفيتُ نفسي وحيدًا أمام المرآة الوحيدة في الغرفة الوحيدة. فلا مهرب من المواجهة ولا منجاة من هذه العزلة الكونية إلا هذه المواجهة. وجدتني

أصرخ صرخةً خرجت من قوارح صدري: أما من بديل عن هذا السجن سوى الموت؟!

كانت حَيّرَتْ أمري كشاكيل عمّي إبراهيم الصفراء، التي كان يَسْتَلّها من جرابه ويدسّها في يدي خلسة حين تُقفي الوالدة لتُعدّ له مغلي البابونج. وكانت خنقت روحي حكاية الجنّية الشرّيرة التي مَسَخَت أولاد الأمير الثلاثة كلبًا وشاةً وسعدانًا. وسجنت أرواحهم في زنازين انفرادية من جلد الحيوان. ولكنهم لم يقنطوا من رحمته تعالى. فقيّض لهم من أخرجهم من هذه الزنازين الانفرادية وأعادهم إلى جلودهم التي خُلقوا بها. فما بالنا نحن الخَلْق، الأُمراء على أنفسنا أبناء (وبنات) الأُمراء على أنفسهم، لا نَلْقى مهربًا أمامنا – أو تحتنا – من زنازيننا الانفرادية سوى أن نُلقي بأنفسنا بين فكّي التنّين، شأن الواحد منّا شأن أهل الأرض في هذا الكون؟! هل حكم علينا هذا الحبس الانفرادي مؤبَّدًا؟! وهل من اختناق أشد خنقًا من اختناق المسخوطين لاجئين أو نازحين؟! فكيف تندهش، يا صاح، حين تراهم وقد طار صوابهم شعاعًا؟!

وسَمعت الوالدة صوت صرختي فَخَفّت إليّ فارعة دارعة أنْ سوءًا ألَمّ بالمرآة.

كانت، حتى يومها الأخير بيننا، تحرص على سلامة هذه

المرآة التي لُصقت بباب الخزانة الوحيدة في بيتنا، حرصها علينا وعلى فراشنا الصوفي وعلى «جرن الكبّة» وعلى كل ما استطاعت حمله معها – فوق جمال أخيها – من متاع البيت القديم في شفاعمرو إلى متاهات حيفا.

وكانت الهجرة الأُولى في العام ١٩٢٠، في شتاء ذلك العام. ولم تكن الوالدة حاملاً بي أو بغيري. كانت، لأمر مغرق في الغرابة، خلوًا من جَنين في ذلك العام – تمرح وتسرح في فترة من الترويح استمرت ثلاث سنين هي، بإضافة الأشهر التسعة، الفارق الزمني بين سنّي وسنّ أخي الذي كان آخر من وُلد لها في شفاعمرو. وحسبتُ حسابي فإذا تلك الفترة هي الفترة الوحيدة من الترويح التي أُعطيت إياها. فقد حَمَلَتْ، بحسب اعترافاتها، أربعة عشر بطنًا أنجبت منها أحد عشر ولدًا عاش منهم وشبَّ واستشبَّ تسعة ما بقي منهم، على حدّ علمي حتى كتابة هذه السيرة، سوى خمسة: أُنثيين اثنتين وثلاثة ذكور أكون واحدًا منهم حتى هذه الساعة. ويريحون الأرض الطيبة موسمًا أو موسمين. فإذا أرادوا أحسن الخصب أراحوها ثلاثًا.

فأنجبتني الوالدة.

وأتخيّلها ماشية على قدميها الطريق كله من شفاعمرو إلى حيفا[٣٠]، مهرولة إلى جانب البعير الذي شُدَّت المرآة على

عديلته أو خُرجه. وأراها، بعينَيْ خيالي وبما علق في ذاكرتي من روايات إخوتي الكبار – شهود العِيان –، سائرة إلى جانب «جمل المرآة» وقد وضعت يدها اليمنى تحتها طول الطريق خوفًا عليها من السقوط. رفضت أن تركب ظهر الجمل الذي حمل أجزاء خزانتها العتيقة. رفضت أن تركب معاقبة – مرّة هي ومرّة زوجها الذي كان يكبرها بعشرين عامًا. وكان جسمها ضخمًا ورهلاً لا تسعه المرادفة، أي وراء زوجها النحيل الهزيل.

أراها، وزغاليلها تحجل وراءَها، مطرقة أحيانًا وأحيانًا مقطورة: البنت تشدّ ذيل ثوب والدتها فيشدّ أخوها ذيل ثوب أُخته. أو يلتصق الزّغلول بالزّغلول، أشبه بقاطرة من أفراخ الحجل تقطع طريق مرج ابن عامر، مهرولة مهرجلة وراء الحجلة الأُم. لا زوج ولا عمّ ولا خال.

وكنت، حين يُعرض هذا الرّفّ أمامي، أُخفف الوطء على دعاسة البنزين في سيارتي متطيِّرًا بأن أديم هذه الأرض مسرح قديم لهذه التراجيديا اليونانية – عن عالم الطير وعن عالم الإنس – منذ ألف عام كما جاء في بطون الكتب. والاحتمال كبير أن يكون الحال مثل هذا الحال منذ أن خلق الله آدم. «فيا ليت أُمي لم تلدني ويا ليت متُّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا»[٣١]. و«هذا» هو ما شاهدته عيناي من رفوف وأسراب

بشريَّة قطعت مروجنا ووديساننا وجبالنا الخضراء والجرداء والشايبة – حجلانًا لم تجد أعواد سمسم تلتجئ إليها وتختفي فيها من أفواه الصيادين بل وجدت سمًّا أو ما هو أشد ظلمًا.

وظلت هذه الخزانة تنتقل معنا من بيت إلى بيت – من وادي النسناس إلى حيفا العتيقة على رمال الشاطىء الغربي. ومن حيفا العتيقة إلى وادي النسناس مرة أُخرى، في الشارع السُّفلي من الوادي في بيت قريب من «مطبعة حداد»، فإلى بيت قائم حتى يومنا هذا في الجانب الشرقي من شارع الجبل. وأخيرًا عَلَتْ مراتبنا واستقرّ بنا وبالخزانة المقام في شارع عباس استقرار الطيور المهاجرة. ثم اختفت الخزانة مثلما اختفت، في زمني وقبل اختفائي، معالم أشد رسوخًا من خزانة الوالدة. ولا أذكر أنها كانت موجودة في دارنا في شارع عباس في العام ١٩٥٤ – حين لم تتحمَّل الوالدة فراق بقية أولادها. فتركتني، عبر بوابة مندلباوم[٣٢]، إلى أولادها في سوريا حاملة معها مناماتها الصوفية وأبقت بقية فراشنا الصوفي لي ولأولادي. ولكنها أصرت على أن تحمل معها «جرن الكبّة» الحجري. فأبى صاحب الشاحنة، التي حملتها ومتاعها إلى بوابة مندلباوم، على الحدود الإسرائيلية الأردنية آنذاك، أن يلبِّي طلبها. ولا أذكر أنها أصرَّت على حمل خزانتها ومرآتها الصافية. ولو كانت موجودة لفعلت ولما استطاع صاحب تلك

الشاحنة اللعينة أن يمتنع عن تلبية طلبها.

فلا يطلبنّ مني قارئ من قراء هذه السيرة، أو قارئة، أن أَقضي أيامي الباقية في البحث عنها في بيوت مدينتي التي اختفت عن ناظري هي أيضًا. أو أكون أنا الذي اختفى عن أنظارها. فحتى لو وجدتها لن أجدني منعكسًا على صفحة مرآتها. وقد أكون شاهدت في عينَيْ ذاتي، في تلك اللحظة التي جاءَت قبل ستة وخمسين عامًا، شريطًا سلبيًّا معتمًا عمّا سوف يأتي. فصحت: لماذا؟!

يقينًا أنني قلتها في سرِّي، مئات المرَّات قبل أن أقرأها عن ابن الأثير. «فيا ليت أُمي لم تلدني ويا ليت متُّ قبل هذا وكنت نَسْيًا منسيًّا».

(٥)

واستمر في هذه «الخُرّافيّة» وقال:

لا أذكر السبب الذي حدا بمدير المدرسة الجديدة إلى تسريحنا في ظُهر اليوم الأول بعد العطلة الكبيرة.

كنا تدافعنا إلى احتلال ما صمَّمنا على احتلاله من مقاعد، إما حفاظًا على جيرة صديق أو هربًا من أنظار مُعلم. فوجدتني مدفوعًا إلى مقعد خال في جوار ولد قصير القامة عجزت نظراته التحتانية المتصنِّعة، وتشاغله بمسح المكتب أمامه من غبار لم يعلق عليه بعد، عن إخفاء شعوره بالغربة. فجلست على المقعد إلى جواره مستأنسًا بوحشته.

ترى، كيف ورد ذكره في مخيِّلتي وأنا قاعد الآن أبحث في أغوارها السحيقة عن لقائي الأول مع سرايا؟

– فما وجه الشّبه؟

– ما إن يشتد حنيني إلى سرايا حتى أراه، بعينَيْ مخيلتي، منهمكًا في نظم الشعر وكتابته بخطه الجميل. قلت: ولي طلسمي أنا أيضًا. وكتبت قصة «النورية»[٣٣] لأهرب من هذا الطلسم. فإذا هو ماثل أمام مخيِّلتي بطلاً من أبطال تلك القصة. فكيف اتّفق لنا هذا الأمر؟

قال: ما من رفيق صبا حبّبني إلى لغة أُمي وأبي كما حبّبني

إليها هذا الشاب ابن شيخ عين غزال[٣٤] منذ أن أشركني في كتابة التمائم الساذجة وطيّها في قصاصات دقيقة كان والده يطمئن بها القلوب الواجفة على مصير أحبابها الغُيّاب – قلب والدة على وليدها وقلب زوجة على رَجُلها وقلب أرملة شابة على عريس عسى أن يحمله إليها الغيب. ومن تلك التمائم بيتا شعر حَفظتهما منذ ذلك الوقت البعيد وعدت إليهما كلما افتقدت ما أُطمئن به قلوب الصابرين والصابرات على فراق الأحبة، صبرًا جميلاً:

«عسى الكربَ الذي أمسيت فيه
يكون وراءَه فرَجٌ قريبُ
فيأمنُ خائفٌ وَيُفَكّ عانٍ
ويأتي أهله النائي الغريبُ»[٣٥].

فهل يكون وجه الشّبه بقية أمل في فعل هذه التميمة أو سواها من تمائم ابن الشيخ؟

أو يكون وجه الشّبه أنك لم تتمنّ التقاء «بطل من ذاك الزمان» كما تمنّيت التقاءَه ولم تحقق هذه الأُمنية؟

كان عليك السفر، يا عبد الله، حتى موسكو كي تلتقي أبا خالد[٣٦] وحتى واشنطن حتى تلتقي أبا سلمى[٣٧]. وما من ندوة أدبية أُوروبية وافقت على المشاركة فيها إلاّ بعد أن علمت بأنه مشارك فيها. فلما دخلت قاعة الندوة أبلغوك

بأنه لن يشترك.

وآخرها في القاهرة، في مطلع هذا العام[٣٨]، حين أكرمكم أبو عمار بوسام فلسطين وبالتقاء أحبتكم من الأوائل والأواخر، الأحياء منهم والأموات. وكنتم موعودين به. وكنت، شأنك مع المواعيد السابقة، حملتَ معك نتفًا من أشعاره في تلك الأيام الغابرة. فتأخَّر كعادته، حتى لم يبق لك من التمائم سوى: «الغائب عذره معه»!

فمن القائل:

«حبيبك، يا فتنة العالمين،

غريب. فهل تؤنسين الغريبا»؟

والقائل:

«معاذ الهوى ما للنوى تبعث الجوى

بقلبي فتكويه اللواذع والجمرُ

أبت مقلتي إلا التَأسي بالبُكا

فَكان أساها المرّ أن نَفِدَ الصبرُ»؟

ولولا حرصي على تدوين كل ما تجود به الذاكرة، حتى لا تذهب معنا إلى الآخرة[٣٩]، لأحجمت عن السؤال: ومن القائل:

«أعكا أنت للأقذار دارُ

وبؤرة حميات لا تُزار»؟

وما عذري له أنه من حيفا. فلا هو من حيفا ولا حيفا أنقى من عكا بل كلاهما يستقر على الوزن ويجتمع على الوصف منذ أن زارها ابن جبير وقال عنها إنها «تستعر كفرًا وطغيانًا. مملوءَة كلها رجسًا وعَذِرَة». إنما عذري له أنه ابن قرية «عين غزال» التي لم أزرها لا في عمرانها ولا في دمرانها[٤٠]. إلا أن اسمها دلّني على حقيقة رسمها. فقد قيل: أصفى من عين الغزال. وادّعوا أن الغزال لا يشرب إلاّ من العين الصافية. ولولا صفاء السماء فوق «عين غزال» وصفاء سريرة أهلها، فاطمأنوا على الهدنة وعلى النخوة العربية، لما استطاعت طائرات اليهود[٤١] أن تصيب أهدافها في «عين غزال» إصابة «عين الثور»[٤٢].

فثنّى على كلامي وقال: ولا تظهر لي عينا سرايا إلاّ صافيتين صفاء عين الماء الكرملية التي التقيتها لأول مرّة عندها. ولا أذكرهما إلاّ واسعتين حتى لم أر منها، في اللقاء الأول، سواهما: عينين مندهشتين مسبقًا بما تترقب أن تقع عليه من كائنات تعرب عن أُعجوبة الحياة.

قلت: والعيون الصافية والواسعة متعدِّدة الأسماء والنوايا. فمنها عيون المها وعيون الماء وعيون الشعر وعيون الأدب والفن. ومنها عين العذراء وعين السعادة وعين سفتعاده وعين عافية وعين الحلوة وكل حلوة وعينا أُمي.

قال: وعينا سرايا!

وأمّا العين، التي التقينا عندها لأول مرّة، فهي ما لم تقع عليه عين، من قبلي، سوى عيني سرايا. أخذتني بيدي وقالت: «شُف! ألا ترى ماء هذه الصخرة؟».

ووقع نظري، تحت هذه الصخرة، على أنصاب نبتة القرّاص الطويلة الأعناق وقد اشرأبت، خلالها، زهور عصا الراعي بأعناق تناطحها في الطول وتعتنقها في صعودها نحو الشمس. وكست الحمرة خدّيها فانكسفت عنها خجلاً.

قلت: ماء يرشح من تحت الصخرة.

قالت: بل عين ماء.

قلت: ما اسمها؟

قالت: عين سرايا. لم يهتد إليها مخلوق سواي. لا إنس ولا غزال. عين لي وحدي، يابا!

وتراشقنا بماء العين تعارفًا.

كان تسريحنا غير المتوقّع، في ساعة الظهر، قد أجّج شعوري بالعبث الذي تملّكني منذ الصباح. ولم تزدني أبيات الشعر، التي كان جاري يهمس بها، وقد أشاح بوجهه عنّي ترفُّعًا متصنِّعًا، إلاّ شعوراً بضيق الزنزانة التي وُلدت فيها أضيق من منامتي في غرفة واحدة مع ثمانية أُخوة ومنهم بنتان.

فهل أرد عليه بترنيمة:

« نـزرع صـبـاحًـا كـلـمـة الأطـيـار
صـبـحًـا ومـسـاء، لـيـلاً ونـهـار »؟

كان عمي إبراهيم يردِّد على مسامعنا، نحن الأولاد، قصيدة ابن الفارض اليائية التي لم أحفظ منها سوى مطلعها:

« سـائـق الأظـعـان يـطـوي الـبـيـد طـيّ
مـنـعـمًـا عَـرّجْ عـلـى كـثـبـان طـيّ ».

فهل أرد عليه بسائق الأظعان؟ فكيف بي إذا استزادني؟ وكيف به إذا عجزت؟

فأنعمتُ على نفسي بالانطواء على نفسي.

فلما رأيت أولاد صفِّي يتدافعون نحو بوابة المدرسة، عائدين إلى زنازينهم، وتحسَّست زوادتي داخل « بيت الكتاب »[٤٣]، أيقنت أنني حُرّ في أن أهيم على وجهي حتى ساعة المغيب. فزوّادتي معي ومعي همومي.

هِمْتُ على وجهي صاعداً في الكرمل وحدي لأول مرّة في حياتي.

كان الكرمل، بعد، غابة بكرًا سوى مَنارته التي كانت – في عيوننا – أقرب إلى نجوم السماء منها إلى بيوت الوادي.

وقد يكون أخي جواد قد حملنا على حنطوره في يوم من أيام عيد الكرمل – عيد مار الياس[٤٤]. وكان للجبل بوابتان: البوابة التحتا. وتأتيها على طريق « ستيلا مارس » من فوق

تل السّمك. والبوابة الفوقا في الموقع الذي ينتهي إليه شارع الجبل ويبدأ فيه الكرمل الفرنسي شرقي المنارة. وكان القيِّمون على دير اللاتين يَجْبون عمولة محدّدة عن كل عربة أو سيارة تدخل من إحدى البوابتين.

كانت وحشة الكرمل تقبض أنفاسنا، نحن الأولاد، خصوصًا في طريق العودة نازلين إلى الوادي في المساء. وأسمع الآن، بأُذنَي مخيِّلتي، صرير محابس الحنطور وأخي يشدّها على عجلات حنطوره وهو ينحدر بنا في شارع الجبل وكلُّنا صامت يصرّ على أسنانه. وما كنا نتنفّس الصّعداء إلاّ بعد أن نتجاوز الليّة الأخيرة في شارع الجبل، في الزاوية الحادة مع شارع طبريا، ونشرف على الوادي سالمين. فكم من حنطور لم تقو محابسه، ولا عجز حصانه، عن وقف انحداره نحو هَوَارة السفح المواجهة للمنحدر في تلك الليّة!

قلت في نفسي: أصعد في شارع الجبل مشيًا على قدميّ هذه المرّة. وحين يأتي المساء أنحدر في شارع الجبل، وحدي هذه المرّة.

شدّتني رغبة في «كُوّارة عسل» تشدُّني بعيدًا عن التنّين. كنت محتاجًا إلى النّظر في نفسي وجهًا لوجه أي بدون واسطة مرآة أُمي. لقد تعوّدت، حتى ذلك اليوم، على رؤية نفسي واحدًا من الجماعة، واحدًا من الحارة وأولاد الحارة. فلا أسيب

أبعد من صخور الشاطئ ولا أتغرَّب أبعد من موارس عين السعادة بالقرب من مصب نهر المقطّع شرقي حيفا. وما كنت أتغرّب إلاّ في جماعة. وكنّا نصطاد السمك ونقطف الزهور وعيدان الشومر وقصب المص[٤٥] في جماعة.

أما الكرمل فقد وُجدنا وهو موجود من قبلنا. ننام وهو ماثل أمام أنظارنا. فنستيقظ غير ملتفتين إليه لأنه موجود كما السماء من فوقنا موجودة والشمس في النهار موجودة. ولا يعلو موجه كما يعلو موج البحر أحيانًا. ولا يأتي ذكره في نشرة الراصد للأحوال الجوية. ولا يراقبون وضعه في صباح يوم ماطر عنه في يوم مشمس. ولا يختفي كما تختفي نجوم السماء أو تغيِّر من رسومها. ولا يشرِّق ولا يغرِّب. ولا هو قمر يهلّ هلاله ثم يصبح بدرًا ثم يأفل ذلك البدر.

فالكرمل هو الكرمل. هكذا كان. وكان أن حسبت أنه سوف يبقى مثلما بقي حتى أيامي تلك. فلم نعد نتنبّه إلى وجوده.

ولم أتنبّه إلى وجوده، في ظهر ذلك اليوم، إلاّ بعد أن ارتطمت روحي بجدران زنزانتي. كان الكرمل، في عيوننا بعد، بكرًا. ولو لم تلقني سرايا لوجدت صخرة من صخوره الملساء افترشتها وأقمت فوقها بلا حركة وبلا شراب أو طعام حتى يجدني أخي جواد أو يسبقهم الوحش إلي فأتماوت له

حتى أموت.

صعد في شارع الجبل حتى واجهته فتحة درب ترابي ضيِّق تحفّ بجانبيه أشجار البلوط والخروب وطلوع العلّيق والخرفيش وغيرها ممّا استشرس شوكه وتَحَشّر بالصاعد أو بالنازل مهما تهزل قامته ويتحاشاها. كان هذا الدرب الضيِّق معتمًا في النهار عصيًّا على العابر في الليل. وكان مرتفع الزاوية كأنه السلم المسنود إلى حائط. والحائط هو الكرمل. وما عُلم عنه، في زمانه وأوانه، إلا آمنًا في النهار وفي الليل.

ويحكي ويحكي ويسترسل في «الخُرَّافيّة» لعلّه يهتدي إلى تلك اللحظة الأُولى التي علقت فيها عيناه بعيني سرايا. فلا يهتدي.

وتهرب منه هذه اللحظة كما هربت اللحظة الأُولى التي أبصرت فيها عينا الجنين نور الدُّنيا. وعلمنا أن هذه اللحظة لا تأتي في لحظة بل تدريجيًا: يتعوَّد الوليد على الحبو شبرًا شبرًا. ثم يتعلّم المشي على قدميه خطوة خطوة. وعلى هذا المنوال يتعوّد الرضيع على الرؤية بعينيه. وكم من إنسان عاش ومات دون أن يتعلّم الرؤية بعيني رأسه! وكم من إنسان عاش ومات على النطع لأنه جرؤ على هذه الرؤية. فإما أن يعيش غبيًّا وإما أن يموت نبيًّا.

باستثناء كلمة «ماما»،

وبعدها كلمة «بابا».

قد تكون ظهرت له، وهي تحمل جرتها الفخارية الصغيرة – وكنّا نسميها «شَرْبة» – أمام فتحة الدرب الضيق والمعتم، حافية القدمين.

فتكون نفسه، التي كبرت عن الإغفاء على حضن أُمه وكبرت عن الصراخ من وجع الراس: «يامّا»، اهتدت إليها كما اهتدى فيثاغورس إلى وحدة الكون وإلى حلول الأرواح وهو متنسِّك فوق هذا الجبل.

كان قد قيل، إنْ صدقًا وإن كذبًا، إن «الحاجة أُم الاختراع». فلا يكون الدور الذي أدّاه الكرمل – في هذا المجال – إلاّ دور «تفاحة نيوتن» الأُسطورية: تُسقطها جاذبية الأرض على الأرض. وأما الكرمل فيجذب إليه الأرواح الهائمة على الأرض.

وما كان منتشرًا في الكرمل، في ذلك الزمان، سوى «تفّاح الجِنّ» أو «تفّاح الجان». وهو ثمرة حمض على مرارة، تنمو خضراء ثم تنضج صفراء، أشبه بالتفاحة «القرقشاني» إلا أنه أصغر كتلة من التفاحة «القرقشاني» وأكبر حجمًا من حبّة الزعرور. وكانت جدتي، «مريم الحيفاوية»، تدّعي أمامنا أن من يأكل منه يصاب بالجنون. وكانت تسمّيه «تفاح انجنّ». وتقول: «من يأكل منه يَنْجَنْ». قال: ولما دسّ عمي إبراهيم

في فمي حِزًّا منه وقال: «بَرْطِعْ»! أجبته، بصوت عال: «بَرْطَعْت»! فانتهرني هامسًا: «هس. وطّي حسّك»!

و«البرطعة» هي قفز الماعز في الربيع بعد الاكتفاء. فتبرطع بين الصخور: «بطن ملآن. كيف تمام». تقفز في الهواء، من صخرة إلى صخرة، بادية الحبور والمرح. وتشتد برطعتها بعد وجبة دسمة من «تفاح الجِنّ».

ولن تجدها في القاموس. فهي من «كلمات السر» بيننا وبين الكرمل وماعزه. وما بقي في الكرمل، الآن، ماعز نحاوره. وما بقي في الكرمل خلاء نبرطع فيه.

وكان لا يبرطع إلا حين يلتقي سرايا عند «عين سرايا» وهي تملأ جرَّتها الصغيرة، ذات عنق الغزال، وتسقيه. هكذا قال لي حين خرّفني بهذه «الخُرّافيّة».

وكانت سرايا – قال – أول من عَرّفني على «تفّاح الجِنّ» أنه صالح لمعدة البشر. وأنه بهجة للعيون، شهيّ للنّظر. وكانت تقطف حبّة منها وتشطرها بأسنانها وتناولني شطرها الثاني. فآكل.

«فرأت المرأة أن الشجرة جيِّدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهيّة للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضًا فأكل»[٤٦].

ويستبد به العطش. فيعبّ ماء العين عبّ غرائر الإبل. أو

تملأ شربتها وتسقيه ويسقيها.

وكان، لمّا مشى في درب الآلام، أن جرؤ على الاقتراب من ذلك المَعْلم. أوقف سيّارته في نهاية الشارع الذي كنّا نسمّيه «شارع العشاق» ولأمر ما سموه، من بعدنا، باسم «شديروت هتسڤي» أي «جادّة الظبي». وقد أقفر من أهله الظّباء. وكان، في زمني، دربًا ترابيًّا مستقيمًا تحفّ به أشجار الصنوبر من جانبيه في تناسق خصّ به الخالق سبحانه وتعالى دروب الفردوس. فجاء شعبه المختار وردّ هذه الأمانة إليه عَزّ وَجَلّ كاملة غير منقوصة. فلا تحفّ به الآن سوى السيّارات الخصوصية واقفة على الجانبين الواحدة في قفا الأُخرى لا تتحرَّك كأنها مجتمعة في مقبرة أفيال تنتظر ساعة الحشر.

وتنهَّد ثم قال:

وقفت على صخرة من الصخور القريبة من موقع سيارتي أُطلّ على الوادي وعلى أطلالي. وأتشوّف تلك الصخرة التي كان الماء يرشح من تحتها وكانت طلوع البُطمة والعنَّاب والزَّعرور والشُّومر والنّعناع وتفاح الجِنّ تحرسها من وقع الأعين الغريبة.

قد لا تكون هذه الصخرة هي تلك الصخرة. ولم أكن أبحث عن ماء تحت صخرة كي أهتدي إليها. فمنذ أن جَفّتْ عينا أُم بديع من الدمع على فراق أصغر أبنائها الغائبين، فآثرت

أن تلحق به إلى ديار الغربة قبل أن تُحمل إلى ديار الآخرة، جَفّتْ عيون الكرمل مُؤْثِرة الموت معه.

إنه لأمر مفزع أن تعيش وأن يموت الجبل! يا فيثاغورس ويا كهنة البعل ويا أيها النبي الياس ويا أهل الكهف الصالحين ويا نُسَّاك جميع العصور، يا صلاح الدين ويا أُسامة بن منقذ وبولدوين وريكاردوس المولود بلا قلب ونابليون وضاهر العمر، ويا كل قطاع الطرق ويا أيها القراصنة المحتمين من القصاص بمغائر هذه النواحي، يا عمي إبراهيم وسرايا بنت الغول: تعالوا وقفوا معي فوق هذه الصخرة وانظروا كيف تموت الجبال، كيف يموت الكرمل!

أما في ظهر ذلك اليوم فلم تَدُرْ هذه الخواطر في باله وقد أوغل في بَرّيّة الكرمل محاولاً أن يبرئ نفسه من حكم باريها.

وإذا بسرايا تَعْرِضُ عليه من فوق صخرتها وتناوله شربتها وتقول: «عطشان، يابا؟ إشرب».

قال إنه شرب.

وقال إنه الآن، والآن فقط، اهتدى إلى السرّ الذي أشغله منذ أن مشى في درب الآلام يجمع ما تساقط من عَلَى زيتوناته العتيقة من ذكريات، حبّة حبّة.

الآن فهم كيف اهتدى فيثاغورس، عبر الأرقام، إلى وحدة الكون.

أما أنا فأجدني مشرفًا على قدس أقداسي عبر الحروف.

فلماذا لا يكون «الغول» من الإيغال؟ وهل من إيغالٍ أشد غَوْلاً من إيغال طفل، وحيداً، في براري المسكونة؟!

حُبّي للغة هو حبّ طاغ متوارث عن أجدادنا الأقدمين، الكنعانيين، الذين كانوا أول من اهتدى إلى مفتاح الحضارة وهو حروف الأبجدية. ولما كان اكتشاف النار هو مفتاح الحضارة البيولوجي – ظهور الحيوان المتميز بـ«المادة التي تفكر» – فإن اكتشاف الحرف هو مفتاح الحضارة السيكولوجي – ظهور الإنسان النبي!

وفيما أنا غارق في بُحران سحر اللغة أعادني صاحبي إلى «خرافيّته» صائحًا كأنما «وجدها»:

يا لأخي جواد، كيف قضى دون أن أسأله كيف وقعت بين يديه عصا عمّي إبراهيم ذات الأطواق الثلاثة؟

كانت تلك العصا هي عصا عمّي إبراهيم. وكنت أُوهم نفسي بأنه سيورثني إياها. فقد أوهمت نفسي بأنه اختارني، من بين إخوتي أجمعين، وأفشى لي سر الأطواق الثلاثة. قال: كل طوق يخفي مرآة. وأما مرآة الطوق الأسفل فغير صقيلة. فتنعكس عليها صورة الإنسان الحيوان. وأما مرآة الطوق الأعلى فصقيلة. فتنعكس عليها صورة الإنسان الإنسان. وأما مرآة الطوق الوسطي فمقعَّرة «حتى تتلاشى جميع الصور

في حقِّها وتبقى هي وحدها وتحرق سبحات نورها كل ما أدركته»[٤٧]. فتنعكس عليها صورة الإنسان النبي.

ثم استدرك قائلاً: ولكن، لم يحن أوان ذلك بعد!

سَمّوا الإله القمر بالحرف «سين» وإله الشمس بالحرف «شين» والإلهة، نجمة الصبح، باسم «عشتر». وكان لدى البابليين والأشوريين إلهة باسم «عشتر» أو «عشتروت». وتغنوا بعنترة بن شداد حتى يومنا هذا.

قال: في البدء كانت «ألف» ثم أصبحت الإله «إل». وأول كلمة سمعتها منها، كانت «ب» – يابا! وكانت في مثل سنّي أو تصغرني عامًا.

ويكون ظهورها ظهور الفجاءَة. فيصرخ: «يامّا»! فتضحك سرايا وتقول: «هل أنا غولة»؟

فيجيب: بل جنّية!

فتقطف ثمرة من ثمار «تفاح الجِنّ» وتشطرها بفمها شطرين. وتناوله، بفمها، الشطر الآخر.

وتقول: «كلْ واعطش فسأسقيك من عيني».

«وتناديه الثّمَرات من كل أوب: هل لك، يا أبا الحسن، هل لك! فإذا أراد عنقودًا من العنب أو غيره، انقضب من الشجرة بمشيئة الله وحملته القدرة إلى فيه. وأهل الجنّة يلقونه بأصناف التحيّة. وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين»[٤٨].

وأمعنت النظر في عينيه ثم قالت:

– عيناك!

– ما لعينيّ؟

– عينا أبي، إبراهيم!

– عمّي إبراهيم؟

– هو عمّك؟

– هو أبوك؟!

وحكت له حكاية أشبه بحكايات جدتي «مريم الحيفاوية» – والدة أبي وعمّي – أنها لقيطة ادّعى عمه إبراهيم أنه وجدها نائمة في قماطها في قبو من أقباء الكرمل التي كان يبحث في بطونها عن كنوزه. كان العلّيق والسرِّيس والبلُّوط يخفيها عن أنظار الرعيان. وحملها إلى مغارة أقام فيها معارفه من «العرب»[٤٩] الذين كانوا يرعون مواشيهم في هذه النواحي ويروّبون الحليب لبنًا رائبًا تحمله نساؤهم وبناتهم في زبديات فخّارية إلى بيوت المدينة. واشتهروا بصناعة السَّمن البلدي وبالأجبان. وحملن إلى المدينة بقول البَرّ وفواكه من خبيزة وهِنْدَبَة (علت) وزعتر وفيجن ونعنع وحُوَرّه وزعرور وعنّاب، كما حملوا الحلزون الصغير والكبير في أقفافه بعد «أول شتوة».

قالت إن عمّه إبراهيم تولاها بالتأديب والتعليم، مثلها مثل

«بنات المدينة». فتعلّمتْ فكّ الحرف وقرأت كشاكيله. وعلّمها فنون «الطب العربي». وكانت تشفي السليم[٥٠] وتمتص سم العقرب وتجبر الرضوض وتقطف أكواز الصنوبر من أعالي أشجاره ثم تشويها على نار أوراقه الجافّة ممزوجة بأوراق الغار ثم تدسّها في يده – «فنقعد نقصقص حتى نتعب». وكان عمّه يشقّ عليها يومين أو ثلاثة في الأُسبوع ويبيت في المغارة أو في مضارب العرب. وقد اتفقوا أنها حرة التصرُّف، إن شاءَت حملت قفّتها ونزلت مع نسائهم وبناتهم إلى المدينة، أو نزلت وحدها. وإن شاءَت انضمت إلى الرعيان. وإن شاءَت هامت على وجهها.

ولكن كان على سرايا أن تأوي إلى مبيتها إذا أوت الشمس إلى بيتها. فإذا لم تعد يكون أكلها الذيب.

قال: فلما ظهرت لي، خيالاً على شاطئ الزيب، اشتهيت أن أعود إلى الكرمل أبحث عنها: صبيّة نائمة تنتظر قبلتي فتستيقظ. فنعود!

وقفتُ فوق صخرة جافّة وأنا أحبس أنفاسي كما لو أنني غواص افتقد، فجأة، الأُنبوب الذي كان يعطيه الأُوكسجين.

أُغرمتُ، في شبابي، بهواية صيد السمك تحت الماء. كنت أضع الكمامة الزجاجية على رأسي وأحمل البندقية الهوائية أمامي وأغوص في الماء أمام تلّ السمك. فإذا عبرت من أمامي

سمكة «مشط» أطلقتُ عليها حربة بندقية الهواء المضغوط فأُصيبها أو أُخطئ. وفَرّت من أمامي سمكة «عجاج» دسمة. فلحقتها إلى مغارة منخفضة السقف انخفاضًا شديدًا. ففرّت إلى عمق المغارة. فلحقتُها. فأضعت فتحة المغارة التي كان عَلَيّ الانسحاب عبرها. وكدت أن أختنق. وشعرت باليأس وبعبث الحياة. وشدّني إلى المغارة شعور رهيب بالرغبة في الاستسلام.

زمان ومدّة، يا سرايا!

قال إنه بكى مرة ثانية. وحده بكى مرة ثانية.

بكى، وحده، حين ظهرت له لأول مرة. كان عطشانَ فناولته شربتها. فغسل عينيه.

وغَنّتْ لَه: «عطشان، يا صبايا، دلوني عا السبيل».

وغَنّتْ له: «يا ماريا، يا مْسَوْسِحَة القبطان والبحرية» –

«يا ماريا،

يا مسوسحة القبطان والبحرية،

يا مسوسحة القبطان.

يا ماريا،

يا طالعة من البحر رُدّي عَلَيّ

يا طالعة من البحر.

قالوا بْنَيّة،

بعيونها نيسان عَمْ يتفيّا.
بعيونها نيسان.
جننتيني، يا بنت يا سمرا،
جننتيني.
لا تنسيني. بحيِّكم سهران.
لا تنسيني.
بحيِّكم سهران.
كان في حبيبة
إسمها ماريا.
حَبّها القبطان
والبحر والسكان.
صاروا يغنوا لها صبحية:
يا ماريا،
يا مسوسحة القبطان والبحرية.
يا مسوسحة القبطان».
– ولكنك طالعة من الجبل. واسمك سرايا!
– أخذني فارس فرنساوي سَريّة، من قبل ألف سنة. بنى لي قصرًا في العلالي، فوق جبالهم الجنوبية التي تُطل على البحر. شايف البحر، يابا؟ لا نسيته ولا غربتي خلَّتني أنساه. ما رضيت أن أقص ضفاير شَعري طول ما أنا فوق الجبال.

– مقصوصة، يا مقصوفة!

– ما حدا قصها غيرك.

– أنا؟

– يقطع حريشك ما أنساك! عَمّك إبراهيم عمل لك طيارة كبيرة وانت قدّ العود. ربطك فيها، مثلما رُبط السندباد بمخالب طير الرُّخ[٥١]، وأفلت خيط الطيّارة وسيّبه يعلو ويمتدّ. وصار يركض في الواد ويمدّ. وصارت الطيارة تعلو بك فوق البحر. والخيط، من طوله، كان ملفوفًا على بعضه طبقات طبقات – جبل فوق جبل – وصار اسمه جبل خيط. وراح الجبل وسقط في البحر. وأنت نزلت في مرسيليا ومعك أمتار من الخيط. ورحت تنادي عليه: مَرَس، مَرَس! فسمّوها مرسيليا. وهدوك على قصر ماريا فوق الجبل العالي. ولكنك ناديت على اسمي العربي، الصحيح. وكان معك شبّابة. وصرت تشبِّب بالشبَّابة. وكان معك مِجْوِز. وصرت تنوح على المجوز.

وكان الفارس الفرنساوي كبر وشاخ. فلما صرت تشبِّب بالشبَّابة وتنوح على المجوز أخذته سِنَة من النوم. أما أنا فدلّيت ضفائري ورحت أنت تسلَّقت عليها وهربنا منه سويّة.

– كيف؟

– ضفيرة لك وضفيرة لي. ولكن، لما وقعت أقدامنا على

الأرض، وجدنا الفارس الفرنساوي الشيخ وراءَنا بعد أن أغلق الشباك على طرفي الضفيرتين. وأنت ما كنت كسلانَ. فقمت، يابا، بقصِّهما. وشمّعنا الخيط. وهات، يا جري، إلى المينا الفرنساوي. وهناك سوسحتُ القبطان والبحرية فأخذوني معهم إلى حيفا.

– وأنا؟

– وجدتك تنتظرني في ميناء حيفا.

– كيف رجعت؟

– وليه هو أنت رُحت؟ اللي يروح، يابا، لا يرجع!

زمان ومدّة، يا سرايا!

وقفت فوق الصخرة، بعد غياب امتد حوالي نصف قرن، أبكي مرّة ثانية.

هل تذكرين شجيرات الصنوبر التي كانت قائمة، وحيدة كأنها الواحة، في أعلى الكرمل أمام مدخل المزار البهائي؟ كنت تجلسين في ظلالها، على مفرش من عيدان الصنوبر وقشوره الجافّة تنتظرين وتترقّبين.

وكنت أرتقي «درج اليازجي» الذي يربط شارع عباس بشارع الجبل على طول «سور الراهبات» الغربي. كنت أصعد إلى سطح بئر قائمة على يمين الدرج. أحمل كتابًا أو دفترًا وأقعد على طرف السطح أنتظر وأترقّب.

وكنت تشاهدينني قبل أن أُشاهدك أحيانًا. فتقفزين عاليًا في السماء وتلوحين لي بيديك عاليًا في السماء. وأما حين كنت أسبقك في المشاهدة فقد كنت أقفز عن السطح إلى الأرض وأركض صاعدًا في الجبل حتى ألقاك على حين غرّة منك. فأجدك واقفة وعلى لسانك دعوة لا تتغيَّر:

– «العين اشتاقت لأهلها».

ولا تتركينه يلتقط أنفاسه. بل تأخذين بيده وتمسكين بها طول «شارع العشاق». حتى إذا أشرفتما على الوادي سحبت يدك من يده وفررت تبرطعين من صخرة إلى صخرة وهو وراءَك. ولا يلحق بك، عند الصخرة، إلا وتكونين قد خلعت حذاءيك وأغرقت وجهك وثوبك بماء العين.

ولم تخرج من فمك أية كلمة عتاب حين كنتما تلتقيان بعد غيبة تطول، أحيانًا، شهرًا وأكثر من شهر أحيانًا. أسكنها في قصر فوق العين المشتاقة إلى أهلها وسيّجها بخُرّافيّاته عن انشغاله بتأمين الخبز له ولقومه.

حتى نسيها.

ضرب كفًّا بكفّ ثم قال: أوهمت نفسي أنه ما دام الكرمل باقيًا وما دمتُ أنا باقيًا فأستطيع أن أُؤجل لقاءَنا إلى ما شاء الله. كم من مرَّة نسي الأمير جنيّته الضفدع النائمة تحت وسادته؟ ألم تنطّ عائدة إلى البركة التي جاءَت منها؟

أُصيب بكسل أشد تلويثًا لإنسانية الإنسان من الركون إلى «الحتمية التاريخية» أو إلى الوعد بالخلود. وكلاهما واحد.

فلولا يقين الموت لعشنا حياتنا من تأجيل إلى تأجيل حتى تطلع روائحنا ما دامت أرواحنا لا تطلع. هل تذكرون الفقرة الأخيرة في «رواية الغفران» التي أوردتها في موقع سابق من هذا الفصل؟ أرى إلى أبي العلاء أنه سبق الأوائل والأواخر في تجزئة الذرة إلى جزيئاتها التي تتألّف منها وإلى جزيئات كل جُزيء منها وهلمّ جرًّا – ذرة الخلود. فإذا هي:

«ويتكئ على مفرش من السندس. ويأمر بالحور العين أن يحملن ذلك المفرش فيضعنه على سرير من سُرر أهل الجنة. وإنما هو زَبَرْجَد أو عَسْجَد. فَيُكَوّنُ البارئ فيه حَلَقًا من الذهب تطيف (تحيط) به من كل الأشْراء (الأنحاء). حتى يأخذ كل واحد من الغلمان وكل واحدة من الجواري، المشتبهة بالجمان، واحدة من تلك الحَلَق. فيُحمَل على تلك الحال إلى محله المُشيّد بدار الخلود. فكلما مَرّ بشجرة نَضَحَتْه (رَشّتهُ) أغصانها بماء الورد قد خُلط بماء الكافور وبمِسْكٍ من دماء الفور (الظباء). بل هو بتقدير الله الكريم. وتناديه الثمرات من كل أوب، وهو مستلقٍ على الظهر: هل لك، يا أبا الحسن، هل لك..» إلى آخر الفقرة الأخيرة.

فإلى متى تطلبون مني، يا أحبائي الأحياء منهم والغائبين،

التمهُّل في إنجاز هذه «الخُرَّافيّة» ؟ فلولا إدراكي أن الموت حق لمضيت في التمهُّل حتى العدم ولما كانت هذه السيرة وما فيها من خيانات الذاكرة ومن الأمانة في خيبة الآمال.

عاد يضرب كفًّا بكفّ ويهتف معاتبًا الفضاء:

– لماذا غبت، يا عمّاه، فغابت سرايا معك؟

أشدّ الغياب إيلامًا هو الفراق الذي تعرف، في قرارة نفسك، أنْ لا لقاء بعده.

فهل، حقًّا، لن ألتقي سرايا؟

– يامّاه!

الفصل الثالث

آمـــيـــن

يا قرص الشمس!
« ما أكثر الوفرة التي خلقتها
وما زالت محجوبة عن أنظارنا،
أيها الإله الأوحد لا شريك له!
وحين كنتَ وحيداً، قبل ظهور البشر،
شئت كينونة الأرض –
والماشية والطير وكل الكائنات الساعية على أقدامها
والمحلّقة في الفضاء بلا أجنحة »

(أمين حوتيب / أخناتون).

(١)

أما وتراءَى له طيف سرايا، بعد غيبة امتدت خمسة وثلاثين عامًا، فقد عاد إلى سابق تردُّده. وتساءَل: هل يكتفي عمي إبراهيم، من الإياب، بعصاه ذات الأطواق التي عاد أخي جواد إلينا يتوكّأ عليها ثم عاد عنّا يتوكّأ عليها وقالوا إنه أورثني إياها؟

أم يعود هو نفسه مهما تطل غيبته؟

إلى أن جاء «يوم الحشر الفلسطيني»[١]

الآن جاء «يوم الحشر الفلسطيني» - «يوم لا يُغني مَوْلى عن مولى شيئًا. ولا هم يُنْصرون»[٢]. لقد انشقت الأرض فإمّا ابتلعتهم وإما لفظتهم وإما أحيت أمواتهم أطيافًا «ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُميًا وبُكمًا وصُمًّا»[٣]. ويكون اعتذر عن الظهور، في العام ١٩٧٠[٤]، بأنه لم يكن في الأردن حيًّا أو ميتًا. وأنه، في العام ١٩٨٢، لم يكن في بيروت حيًّا أو ميتًا. أما الآن فلا يستطيع التهرُّب من الظهور، حيًّا أو ميتًا، حتى ولو كان في المنامة أو كان في أُوكلاهوما.

وإن عاد، حيًّا أو ميتًا، هل سيجدني، حيًّا أو ميتًا، مثلما وجدتني سرايا؟!

(٢)

قال: ما من سّر إلا وينكشف في «يوم الحشر». خُذْ عني «خُرَّافيّتي» كلها ثم افعل ما تشاء ويا الله حُسن الختام!

ثم أفصح قائلاً:

كان عَوّدَنا، في طفولتنا، على ظاهرة اختفاء الأحبّة قبل أن يُعَوّدنا الموت والرحيل عليها. إلا أنه كان يعود ولو طال غيابه. حتى حلّ الموت في ديارنا لأوّل مرّة ودفنّا المعلمة بديعة – زوجة أخي جواد الأُولى. وفهمنا، من نحيب الأهل، أن اختفاءَها لا عودة منه ولا حضور لها بعده.

فأين موقع اختفائه بين الاختفاءَين – اختفاء المعلمة بديعة واختفاء الوالدة أُم بديع؟ لم تستطع أُم بديع الانتظار أكثر من خمس سنين على رحيل ابنها الأصغر، نعيم. قال: وما علمتُ بحنينها الجارف هذا إلا حين استمعتُ، عَرَضًا، إلى ابنتيّ الطفلتين تلعبان لعبة «تيتا». وجدتهما جالستين على صخرة تحت شجرة زيتون في «جنينة عباس» المجاورة لبيتنا. كانتا تتظاهران بالبكاء وتمسحان عيونهما من دموع غير منسكبة وتنوحان، مقلدتين جدتهما: «يا نعيم! واينك يا حبيبي»! كان أخوه ضائعًا في أرض العرب الواسعة. فتعقّب آثاره فوجده مقيمًا في دمشق في كنف أخيه جواد. فحملها

إليه عبر «بوابة مندلباوم» – عَبَرتِ الحدود وحيدة وعاد إلى بيتها بدونها. وجاءَه نعيها بعد أربعة أشهر من ظهور قصتي الأُولى في هذه الدولة: «بوابة مندلباوم»[٥].

كان يعمل في القدس حين سقط شارع عباس[٦] في أثناء «حرب تحرير» البلاد من أهلها. فقام أخوه جواد بحمل عائلته وبعض إخوته وعوائلهم في سيارات الأُجرة الخمس التي كان يملكها مع شركائه. واتّجهوا نحو الشام مبتدئين، في تاريخ تيه بني فلسطين، مرحلة العبور «من تحت الدلف إلى تحت المزراب». أما الوالد، حمدي، وكان عَبَرَ التِّسعين قبل ذلك العبور اللعين، فاكتفى من هذه «الغنيمة» بالإياب إلى مسقط رأسه شفاعمرو مع الوالدة. وأقاما في «العَقد» الذي سقط فيه رأس زوجته منتظرًا ملاقاة ربه. فكان له هذا الأمر بعد شهر من هذا العبور – من شفاعمرو إلى الآخرة. وكانوا عَلّمونا أن ملَك الموت اسمه عزرائيل. ولكنهم لم يُعْلِمونا باسم الملك المفوض بأن يعبر بنا هذا الجزء من الطريق. هل هو يرحبيل أم هو عِجْلبيل أم هو إسرائيل الذي أسرى بعباده، هذه المرّة، من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام معتبرًا الأمر «ردّة رِجْل»؟ فالكل مشتق من البيل والبول والبعل – إله العاصفة التي ما انفكت عنا وعن أجدادنا منذ أن نزل «المَبُّول» (الطوفان) وانحسر عن الأرض إلاّ هذا الجوف الذي احتمينا به.

لقد تفرَّقت عائلتنا الكبيرة أيدي فلسطين. فأصبح حالي – والموتُ مع الناس نعاس – حال ذلك الشايب الذي جاء فيه المثَل: «ما أكذب من شاب تغرَّب إلا شايبًا ماتت أجياله». فكيف بحالي وقد أمسيت أُمسك هذا المجد من طرفيه: ما تغرَّبت ولم تمت أجيالي بل هم الذين تغرَّبوا وتركوني أموت وحيدًا.

ما من شبح من أشباح طفولته بقي غامضًا في ذهنه، بعد أن مشى في درب الآلام، سوى عمه إبراهيم – الأخ الأصغر والوحيد لوالده، «المعلم حمدي». ولم يكن لنا، بينه وبين الوالد، – قال – سوى عمّات أربع كُنّ يفككن الحرف وماهرات في شغل الإبرة.

ولا أستغرب، على الرغم من هذه الغربة، أن ألتقي أحد أحفاده التقاء النيزك والنيزك. فينكر عَلَيّ هذا الاسم الذي اخترته لجدِّه، عمي إبراهيم. وما هبطت، في مطار أُوروبي، عابرًا (ترانزيت) إلى مطار أُوروبي آخر، إلاّ وتفرّست في وجوه النازلين والطالعين عساني ألتقي واحدًا منهم أسأله عن جدّه وإن كانَ يَعلَم بأن له «عمّة» اسمها سرايا، كيف حالها من بعدنا؟ وفي يوم من الأيام، وكنت في مطار أنتظر دوري، إذ بالمنادي ينادي على اسمي أن أحضر إلى منصة ذات الرقم الفلاني. فلم أهتد إلى الرقم المعلن إلا بعد أكثر من ربع ساعة

أمضيتها في حيرة «فلاح داخل إلى المدينة». فلما ذكرت اسمي لسيدة المنصة أبدت أساها على أن «السيدة، التي انتظرتك، اضطُرت إلى اللحاق بطائرتها قبل حضورك بدقيقة».

فإن التقيت واحداً منهم فأنكر هذا الاسم الذي اخترته لجدّه، عمي إبراهيم، أجبته: «لقد انتظرتك أربعين عامًا لا ربع ساعة فقط»!

قال: لديّ إيمان باطني، أخفيته عن الناس أربعين عامًا – إخفاء صاحب الدجاجة للدجاجة التي تضع له بيضًا ذهبيًا – بأن مصدر خيالي الجامح وحفظي للأساطير وركوبي خيول الغيب المجنَّحة هو عمي إبراهيم الذي كان «حكيم عرب» وعالج داء الصرع بكاسات الهوا وبفصد الدم تحتها، أحيانًا، وبالأعشاب البرية وأهداني ممّا احتواه جرابه من «أنتيكا» وطيور وأفاعٍ محنَّطة وزجاجات عطور ذات روائح حادّة وكشاكيل صفراء تفحّ برائحة المقابر.

وأهداني سرايا.

ويتملكني هذا الإيمان الباطني خصوصًا الآن[٧] وأنا أُقدم، لأوّل مرّة في حياتي، على البوح بسرّي القديم هذا.

هل، تذكر، يا عبدالله، حكاية القبو – في «المتشائل»[٨] – الذي اهتدى إليه عَمّ سعيد عَرَضًا. واسمه، هو أيضًا،

سعيد. فوجد فيه أضرحة من رخام ادّعى أنها كانت ملأى بالجواهر وبتماثيل من ذهب؟

قال: أذكر ولا أنسى. بل هي واقعة وقعت في زمن طفولتنا وظلّت قيد الهمس بين كبارنا وقيد استراق السّمع بيننا، نحن الصغار، حتى انفجر عمي إبراهيم، يومًا، بالصراخ أن أحد أثرياء جيفا (في ذلك الزمان وفي كل زمان) خانه، بعد أن أَوكل به التصرُّف بهذا الكنز، وأنكره وانفرد بأثمانه دونه. فذهبنا، كبارًا وصغارًا، إلى شفاعمرو ونزلنا في القبو على ضوء القناديل. وشاهدنا، من التوابيت ومن تلاعب الأضواء العفريتية المنعكسة عنها، وعن شظايا زجاج أحمر وأزرق وأخضر وأبيض وأحجار فسيفسائية وأخشاب ذات ألوان النسيان، ما امتزج في مخيلتي – منذ ذلك الوقت – برؤيا النبي حزقيال ثم برؤيا يوحنا اللاهوتي عن الكروبيم والسرافيم:

«وفي وسط العرش، وحول العرش، أربعة حيوانات مملوءة عيونًا من قُدّام ومن وراء. والحيوان الأول شبه أسد. والحيوان الثاني شبه عجل. والحيوان الثالث له وجه مثل وجه إنسان. والحيوان الرابع شبه نسر طائر. والأربعة الحيوانات لكل واحد منها ستة أجنحة، حولها ومن داخل، مملوءة عيونًا ولا تزال نهارًا وليلاً قائلة: قدوس، قدوس، قدوس الرب الإله القادر

على كل شيء، الذي كان والذي يأتي»[٩].

فما تفسيرك لهذا الاتفاق العجيب؟

قلت: يرى اللاهوتيون أن «الكروبيم والسرافيم» هم أقرب الملائكة إلى «العرش». بل هم حملته وحراسه الذين لا تنام عين من عيونهم من الأزل وحتى الأبد ولا يسأمون هذه اليقظة. وهذا ما عناه أُمية بن أبي الصلت[١٠] في قوله:

«ملائكةٌ لا يسأمون عبادةً

كروبية منهم رُكّعٌ وسُجّدُ».

قال: أما عمي إبراهيم فظل يلعن ذلك الثري الحيفاوي – ملعون، ملعون، ملعون – حتى تنبَّهت السلطة البريطانية إلى أمر القبو. فأغلقت بابه. وأشهد أنه لا يزال موجوداً تحت بيت عمّي في شفاعمرو المواجه للعَقد – بيت العائلة القديم. ولمّا رحت أمشي في درب الآلام قادتني هذه الدرب إلى حوش عائلتنا في العاصمة[١١]. فأهدوني إلى فتحة صُبّت بالباطون المسلَّح بالحديد. وقالوا لي: «من هنا كان مدخل القبو». وكان عمي إبراهيم قد ادّعى أن عصاه ذات الأطواق هي التي هدته إلى هذا القبو بعد مضي ألفي عام عليه وهو مخفي عن أنظار الأحياء ممّن تعاقبوا على هذا الحوش. ثم طمرته حكومة الانتداب على فلسطين قبل أن تنطمر. فورثته حكومة إسرائيل مطموراً. فأبقت عليه مطموراً وطمرت غيره

من آثارنا التي لا تدل إلاّ علينا. وكان من المحتمل أن يظل مطموراً إلى يوم الحشر لولا أن جاء يوم الحشر ورحت أبحث عن سرايا في آجام النسيان وقصوره المشيَّدة فوق الغيوم العابرة.

كنّا، بعد، نغمغم بالنُّطق ونحبو فيه حبو طفل نحو نار من قبل أن تكون لَسَعَتْهُ نار. وقد تكون عَرّفتني على تفاح الجنّ وقد لا تكون. ولكنني أذكر أنها، في الزمن الذي شاع فيه سر القبو في وسط عائلتنا – «ملعون، ملعون، ملعون» – بادرتني بهدية أخرجتها من تحت ثوبها كان عمي إبراهيم قد دسّ شبهها في يدي من أشياء جرابه. وكنت دُخت وأنا أبحث عن مكان آمن أخفيها فيه. وكنت أنقلها من مخبإٍ إلى آخر. ولم أَطمئن حتى اهتديت إلى سرايا أن أضعها في حرزها فهو حريز. فلما جئتها، وأنا أتردَّد في اختيار الكلمات المناسبة، بادرتني بهديتها مصحوبة بابتسامة لا حَيرة ولا تردُّد فيها. فأخرجتُ هديّتي من جيبي وتواجهنا: ابتسامة بابتسامة وتمثالاً بتمثال. ووجدنا أنفسنا نصيح بصوت واحد: «ملعون، ملعون، ملعون»!

كان عمي إبراهيم قد أهداها، مثلما أهداني، تمثالاً بطول إبهام اليد من النحاس الأحمر لطائر من طيور العقاب له منقار دقيق الصنع وقد أضمر جناحيه مُؤْثِراً سكينة الخلود. وكان لعن الثري الحيفاوي أمام أصحابه البدو في حضرتها مثلما

فعل أمام والدي وإخوتي في حضرتي.

وتبادلنا التمثال بالتمثال. وهما مثيلان كأنهما التوأمان. ودَعَتني، لمّا ودّعتني، أن أُبقي تمثالها معي أيضًا – أمانة. ففضّلت أن أئتمنها على التمثالين. فاتّفقنا على تبادل التمثالين في كل زيارة. وميَّزنا التمثال التوأم عن أخيه التمثال التوأم بعلامة مميَّزة. فكانت علامة تمثالي أننا كسرنا طرف جناح من جناحيه. وكانت علامة تمثالها أننا أبقيناه غير مكسور الجناح. وهي التي ارتأت هذه العلامة. وقالت: «لن تطير إذا ما ابتعدت عني». ومضينا في تبادل التمثال بالتمثال حتى اختلط ما لها وما لي من تماثيل ومن هدايا عمي ومن هداياها. وهو ما ألفّ وأدور ولا أجرؤ على البوح به حتى كتابة هذه السطور.

وكان تمثالي ينام في كنف تمثالها أحيانًا. وكان تمثالها ينام في كنف تمثالي أحيانًا. وكنت أُبيّته وأُبيّتهما في «غرفة البير» – في فتحة أُنبوب كان يستعمل لجمع الماء في البير من أسطحة بيوتنا حين كانت البير بيرًا وكانت الأسطحة رحبة نقيّة والغيوم معطاءَة.

فلما انتقلت إلى العمل في القدس أهملته داخل الأُنبوب المهمل. فلما عدت بالوالدة من شفاعمرو إلى بيتها القديم، في شارع عباس، مددت يدي إلى فتحة الأُنبوب أبحث عن

التمثال العقاب. فلسعتني عقرب. فأغلقنا الفتحة بالباطون.
وسمعتني الوالدة أصرخ: «اللي فات مات»! فصاحت: «لحظة مع نعيمي[١٢] ولا كل نعيمك[١٣]».
وابتلعتها بوابة مندلباوم.

(٣)

وهل كانت الدجاجة، التي تضع بيضًا من ذهب، إلاّ من نسج خيال مجنَّح؟ فكيف أُلامُ على ظني الظنون بوجود هذا العمّ الغامض؟

ولما مشيت في درب الآلام اهتديت إلى قبور من مات من أهلي وعشيرتي أو إلى منافي الغُيَّاب منهم. وسجّيت الزهور بيدي على قبور من لم يغب منهم وشَقّيت على أطلال من غاب.

إلاّ عمي إبراهيم: لا خبر ولا علم!

كان، كما عَلّمَتْنا الوالدة، آخر العنقود بمن فيه من إناث هنَّ عمَّاتي الأربع. مات والدي، وهو بكرهم، في العام الذي انشقّت الأرض فيه عن هذه الدولة. فكان أول حبّة سقطت من حبّات هذا العنقود.

أما عَمّتي، التي جاءَت تحت والدي، فقُدتها على عكازتها إلى صندوق الاقتراع في انتخابات الكنيست الأُولى (١٩٤٩). ولم تَعِ، مما شرحته لها عن برنامجنا الانتخابي، إلا أنهم «مسكوني» وأنني أقودها إليهم لكي تحميني من بطشهم. كانت أُصيبت بالصمم أو كانت آثرت أن تصاب بالصمم. وما كان قُيّض لها من ملكة النطق، أصلاً، سوى

الهمس. ولا أذكرها إلاّ وهي أرمل مات عنها زوجها وهي – كما قيل – على طفل قيل إنه سقط عن سطح المطحنة. وكانت تسميها «البابّور». وعلمت، فيما بعد، أن «البابّور» من «البامبور». وهي كلمة تركية تعني «القافلة». وجاءَتني هذه المعرفة على لسان دليل بلغاري حين أمضيت عطلة صيفية (كان يا ما كان) في منتجع على جبل «پامپوروڤا» من سلسلة جبال «رودوبي» البلغارية البلقانية. فأبلغني أن اسم الجبل – «پامپوروڤا» – موروث من زمن الحكم التركي حين كان يسيطر على تلك النواحي إقطاعي بلغاري اسمه «بنيتشو بيليف». وكان ينقل بضائعه من مدينة «پلوڤديف» إلى تلك النواحي على ظهور الدوابّ التي قطرها في قافلة. فهي القطار. وفوق هذا الجبل كان يقيم أسواقه. وكان سكان المنطقة من الأتراك يهتفون: «جاء البامبور». فأصبحت «پامپوروڤا». وهو، أيضاً، قطار سكة الحديد على لسان جدتي مريم الحيفاوية – «البابّور». ومنها، أو من غيرها من «المريمات»، نقلها الفَعَلة الحوارنة فهتفوا: «وَلّع البابّور وَلّع» حين كانوا ينقلون دَلْو الإسمنت السائل من يد إلى يد في قافلة بشرية يدوية حتى يد زميلهم البَنّاء في أعلى العمارة التي كانوا يشيِّدونها. ومن «البوابير» «بابّور البطيخ». ولقاطرة عربات السكة الحديد هدير. وللموتور الذي يحرك

رحى المطحنة في شفاعمرو هدير مشابه. فقيل عن المطحنة، أيضًا، «البابّور». و«البابّور»، أيضًا، هو الوجار الحديدي الصغير الذي كنّا نوقده بالكاز المضغوط. وكنّا نطهو عليه الطعام أو نسخن الماء لغسل أجسامنا. ولم أرَ عمّتي هذه في بيتها في شفاعمرو، مرّة، إلاّ وجدتها تكنس – بمكنسة من القش أو من السريس، أرض غرفتها المرصوفة بما تيسَّر من إسمنت أو بقية التُّراب أمام عتبة بيتها، تلك البقيّة التي استطاعت الإفلات من لحية مكنستها سبعين عامًا وهي تواظب على كنسها يومًا يومًا، مرتين في اليوم – مع الفجر ومع غياب الشمس – كأنما خلقها الباري تعالى وخلق مكنستها معها لهذا الغرض وحده: «بابّور» من فرد واحد يقطر سنوات عمره وأيامها مكنسة مكنسة وهديره همس المطاحن المعطّلة.

ووجدتها على هذه الحال حين جئتها من حيفا، هامًّا مستهمًّا، لأحملها إلى صندوق الاقتراع. فهرولت عائدة إلى غرفتها. أسنَدَتْ مكنستها في زاويتها المعهودة وانتزعت عصاها من زاويتها المعهودة وحملتها وتقدّمتني وهي تصرخ بأعلى ما أعطاها الرب من همس: «خلّيني عليهم»!

وفي الفترة ما بين الانتخابات الأُولى والانتخابات الثانية (١٩٥٢) خسرنا صوتها. فتكون حبّتها قد سقطت من

العنقود في الفترة ما بينهما.

أما الحبّة الثالثة، عمّتي سرحانة، فأذكر أنني شَقّيت عليها عدّة مرّات وهي مقيمة في ملجإٍ مقدسي عائد إلى إحدى المؤسسات الرهبنية. وكنت أعودها بدون مشقّة طول وجودي في القدس مختاراً. وكان الملجأ، ذو الأبهاء والغرف الواسعة والبيضاء الطلاء – أسرّة وجدرانًا وسقوفًا – يهدئ من روعي. فكنت أخلد إلى السكون في حضرتها. وكان السكون يحتضنني ويحتضن نزلاء هذه الواحة من الصمت في مدينة علا لغطها على لغط التاريخ عنها. فإذا فتحتُ فمي لأُحدثها عن أخبار أهلها، في شفاعمرو وفي حيفا وفي دمشق وفي بيروت وفي بغداد وفي ماساتشوستس، وضعت سبابتها على فمها إشارة إلى أنْ «هُسْ». وكانت العجائز الأُخريات، من حولها، يلتفتن نحوي في عتاب لعوب. فإذا عَبَرت أمامنا راهبة في ثيابها البيضاء، وأنا أهّم بفتح فمي، ابتسمت في عيني ابتسامة تشجيع على الاستمرار في الاسترخاء. فنستمر في الاسترخاء.

وكانت عمّتي تأخذ بيدي، أحيانًا، فنخرج إلى حديقة الملجإ الداخلية – المسوّرة بسور عال يحجبها عن أسوار القدس العتيقة. وتجلسني على مقعد مظلّل بأغصان مورقة. وتخرج من صدرها الضاوي «الكتاب المقدس». وتشير إليه وتهمس

في أُذني: «الكل مكتوب هنا، يا عمّتي». ثم تتنهّد: «راح حمدي ورحل إبراهيم. فشو النفع»؟ ثم تسرد، في قطار واحد، أسماء الرائحين والراحلين اسمًا اسمًا دون تمييز بين رائح أو راحل أو مقيم. وكانت تدخل أسماءً من غير ذوي القربى، أحيانًا، لا فرق بين مسلم أو درزي أو مسيحي إلاّ في الأصالة الشفاعمرية. ووجدتها تذكر أسماء يهوديات شفاعمريات من معارفها في زمن طفولتها. وقد أَلِفَ بعضهن زيارة الوالدة في بيتنا في وادي النسناس. وكنّ يتربّعن على الحصير مشمِّرات عن «شناتين» متشابهات في الطول والعرض والفضفضة والألوان الزاهية.

وكانت عمّتي سرحانة تحدثني، ونحن تحت الشجرة، عن «أجوج وماجوج» وأن «كل شيء مكتوب». ولكنني، في مشيي الأخير في درب الآلام، تكاسلت عن قراءَة ما هو مكتوب عن «أجوج وماجوج» مثلما تكاسلت عن المرور على واحة السكون هذه في صحراء لغط التاريخ عن القدس الشريف الذي أصبح اسمه «هُنا أُورشليم – القدس» و«القدس لنا» والكويت أيضًا. ولو ظلت عمّتي سرحانة عائشة، حتى هذا اليوم، لوضعت سبّابتها على فمها إشارة لي أنْ «هُسْ». ولكنها راحت وسبق السيف العذل و«خلّي السيف يقول، يقول السيف». وجاءَتنا هذه النباهة كلها

على الرغم من أننا حفظنا عن ظهر قلب، في كتاب «راس روس» للسكاكيني وفي «مدارج القراءة»، أن «لسانك حصانك، إن صنته صانك».

هُسْ!

فتكون عمّتي سرحانة قد توفيت، ودُفنت في مدافن ذلك الملجإ، دون علمي. ولا يمكن أن تحدث وفاتها دون علمي إلاّ في العام ١٩٥٩ حين لم يختاروني مختاراً في القدس في ذلك العام بحسنة إذاعات أحمد سعيد. فيكون سقوط حبّتها من عنقود العائلة وسقوطي عن المخترة قد تزامنا. فأشغلني وجع سقوطي عن وجع سقوطها، رحمها الله وأسكنها ملجأ في جنانه. وأتخيّلها، في لحظاتها الأخيرة بين زميلاتها العجائز، قد وضعت سبابتها على فمها وهمست: «هُسْ»! ثم أسلمت الروح.

وأمّا رابعة حبّات العنقود فقد فرشت لي بيتها ولرفاقي، وأولادها وأحفادها من بعدها حتى يومنا هذا. ولم تغادرنا إلاّ بعد أن تَرَضّتْ على أولادي وأحفادي. وفي العدوان الحزيراني (١٩٦٧) أقمت في بيتها القديم الرحب أُسبوعًا مختفيًا عن الأنظار علمًا بأن الاختباء يومين كفاني. إلاّ أنني أقمت في رحبها بقية الأُسبوع هربًا موقتًا من هذه الدنيا. وصحفيون عبريون نشروا في صحفهم أنني اختبأت حتى

جفَّ دمعي. فأنكرت هذا الأمر مكابرة. وأجدني، الآن، أخطأت في ركوب هذه المكابرة. فما ضَرّني أني بكيت بل ضَرّنا أننا تكابرنا على الرزيئة فمحونا ذكرها فعدنا إليها عودة بغل الحنّانة. قد قيل: «التكرار يُعلِّم الحمار». فلم يخطئوا.

وأما «الدلُّوعة»، عمّتي نزيهة، فأبت أن تغادر هذه الدُّنيا إلاّ بعد أن تكتحل عيناها بمشاهدة ابنها وحيدها الذي كانت أيدي سبأ ألقت عصا ترحاله في الولايات المتحدة الأمريكية. فرحلت إليها مع زوجها وكانت اقتربت من الثمانين أو بلغتها بهمّة لا تعرف الكلل. وحُملت من أرض مطار اللد (بن غوريون) إلى الطائرة على نقّالة رُفعت إلى الطائرة برافعة كهربائية.

وكنت شاهد عِيان. وكانت قادرة على الصعود إلى الطائرة ماشية على قدميها الاثنتين لولا أن «قَرْطَلَها» ما لقيته من تعرية وتفتيش وأسئلة أقنعتها بأنها «مخربة» بنت «مخرب» وعمّة «مخرب» هو حضرتي. وكلمة «قرطل يقرطل فهو مقرطل» حفظتها، منذ طفولتي، عن المريمتين – الحيفاوية والشفاعمرية. ثم عن عمّتي نزيهة التي بوركت بزوج نشيط من أولاد عمِّها كان يحمل إليها الطعام وهي مستلقية على سريرها تقرأ في «كتاب الصلاة» وهي «مقرطلة».

وكنت، بحكم كوني مختاراً في القدس، شاهداً على ما

جرى لها في المطار و«قرطلها». ولما حملوها إلى الطائرة على النقّالة استرقَتْ نظرةً من عينيها إلى جهتي وقالت، بلسان الحال: «ما أنت فاهم، يا عمتي»! فتوجّهت إلى المسؤول عن هذا التصرُّف أُعاتبه. وانتظرت في أرض المطار إقلاع الطائرة بها وبزوجها.

وها أنا أُقسم بالله العلي القدير على صدق شهادتي – شاهد عِيان – على ما حدث لعمّتي بعد خمس دقائق من دخولها إلى الطائرة «مقرطلة»:

إذا بالنقالة نفسها تُعاد إلى أرض المطار وفوقها عمّتي نزيهة وقد أسبلت جفونها على عينيها وأصبحت «قرطلتها» حقيقية.

ويحيط بها المفتِّشون والمفتِّشات من كل حدب وصوب. ويحملها عدد منهم إلى غرفة التفتيش مرة ثانية وهي مستلقية على العرش هذه المرّة. وكانت وجوههم متعددة الأشكال كأنهم ملائكة الكاروبيم تحلّقوا بالنّقالة وحملوها إلى غرفة التفتيش – شبه أسد وشبه عجل وشبه نسر وشبه عنز وشبه بقرة وشبه ثور وشبه بغل وشبه حمار وشبه حمارة وشبه طاووس وشبه ناقة وشبه جاموس وشبه جاموسة وشبه سيّد إشطة وشبه ست إشطة. ولكنني لم أر بين وجوههم وجهًا شبه إنسان.

ويفتّشونها تفتيشًا باطنيًا دقيقًا خوفًا من أن أكون أخفيت في طيّة من طيّات ثوبها، أو تحت «شنتيانها»، زجاجة مولوتوف أو قنبلة عنقودية تلقيها عمّتي نزيهة فوق مطار أيدلوايد (كنيدي الآن) في نيويورك حين تشرع طائرتها في الهبوط ويصفّق اليهود الأمريكان لقبطانها على سلامة الهبوط.

ويفشل «الموساد» في وضع اليد على القنابل التي أخفيتها في ثوب عمّتي نزيهة، على الرغم من أنه كان عرّاها ولم يُبق عليها سوى زقّ ربها. ولم ينل زوجها ما نالها من هذه الأُبَّهة. ولا أرى سببًا لنجاته سوى أنني خصصتها برعايتي من دونه وأخبرتهم أنها عمّتي «لزمًا» وأن «الاختيار» الذي معها هو زوجها فحسب.

غير أن ربّها رحمها. فلم تعش، بعد عملية «الكاروبيم» هذه، سوى عام واحد. مات ابنها وحيدها عنها. ثم ماتت عن زوجها فتزوج بعجوز أمريكية «زواج الجنسية». ولكنها أبت أن تطلقه فاستلقى على سريره وطَلّقَ الدنيا.

فتكون عمته نزيهة الوحيدة، من بين عماته الأربع، التي أبقت على زوجها من ورائها. أما الثلاث السابقات – رحمهن الله ورحم الجميع – فما أدركهن إلاّ وهنّ أرامل. وتكون أسلمت روحها إلى باريها في وقت غير معلوم له وقع في الفترة

ما بين العامين ١٩٧٢ و١٩٧٤ . ويعود هذا التقويم إلى أنني شرعت في كتابة «المتشائل» في العام الأول من هذين العامين. وأنهيته في العام الثاني من هذين العامين – أي في العام ١٩٧٤ – وأوردت فيه وصفًا أمينًا لما فعلوه ويفعلونه تحت أثواب المسافرين العرب عبر مطار بن غوريون في مطار بن غوريون. وكنت أوهمت نفسي أنني، بذكري هذا الأمر في «المتشائل»، أنتقم انتقامًا أبديًّا منهم، انتقامًا ينتقل من جيل إلى جيل، عمّا فعلوه بعمّته نزيهة.

فلما لم ينفع بهم هذا الانتقام الفردي – ولم ينفع – جئت الآن بهذا الانتقام الشامل «الكاروبيم» أيضًا. فإذا زادوها وسّعته حتى يشمل «الساروفيم». فإلى متى يوهمهم طيشهم أنهم يستطيعون أن يحملوا ما لا يحمله سوى الخالق عزّ وجلّ من صفة – أنه لا يتغيّر ولا يتبدّل: يعرُّونهم ويبعدونهم؟ إلاّ عمّه إبراهيم. كان يغيب غيباته. ثم يعود مُحملاً بمدهشات جديدة تتغيّر وتتبدّل من عودة إلى عودة.

وكان، هو نفسه، يتغيّر ويتبدّل.

(٤)

قال: كان يغيب دهرًا ثم يظهر في بيتنا عصرًا. فهل سيعود بعد هذه الغيبة؟ ها أنا أُمعن النبش في أغوار الذاكرة بحثًا عن غيبته الأخيرة فلا أهتدي إلى بداية لها فكيف أهتدي إلى نهايتها؟

أعرف عنه سرًّا أغرب من سرّ دوريان چْري ومن سرّ شمشوم الجبار ومن سرّ أخيل[١٤]. وكنت لمست هذا السرّ لمس اليد. فيحقّ لي أن أتوقّع عودته. فيؤنّبني على استباحتي سرّ الدجاجة التي كانت تضع لي بيضًا من ذهب.

فما أنا فاعل؟

ليس لي من مبرِّر، يا عَمّاه، إلا أن افتقاري إلى ما أسدّ به رمقي مما أُبقِيَ لي من غذاء سوى لحم هذه الدجاجة. خرجت من مفازة العمر منهكًا دون أن أفوز منها بشيء حتى ولا بشروى نقير. فوجدت حالي، بعدها، أشبه بحال «مصيّفة الغور» لا من برد شتاء تَدَفّأت ولا من حرّ صيف تَبَرّدَتْ.

كنت أحثّ الركب وأنفخ في نار القِرى وأشد في ساعد الولد وولد الولد. فلما اشتد ساعده رماني.

مضيتُ، منذ مطلع هذا العام[١٥] يا عمّاه، أنهش في لحم جسمي ما لم تلحق أفواه أقراني وخلاّني على نهشه من لحم

جسمي حتى عَضّت نواجذي على عظام الجمجمة وعلى ضلوع الصدر. فَخَفّت ذكراك، يا عمّاه، إلى نجدتي. استبحتها حتى لا أُبيح لهم المحال – قلبي ولساني. ولم أُبِح لنفسي إلاّ أقل مما أباحه خالقنا العظيم لنفسه حين أنزل الكبش على خليله إبراهيم، عليه السلام، فداء وضحية عن ابنه إسحق وعن ذرّيته أجمعين من بعده إلى يوم القيامة على ما هو مثبت حتى الآن. فإن دجاجة، حتى ولو كانت تضع بيضاً من ذهب، لأَحَطُّ قدراً بما لا يحتمل المقارنة من كبش من كبوش الجنّة.

كنتَ أول من حفّظني، عن ظهر قلب، شعر عمر بن الخيام الفارسي الصوفي في لزوم قيام الفرق بين فعل الخالق وفعل المخلوق:

« إلهي، قل لي، من خلا من خطيئةٍ
وكيف، ترى، عاش البريء من الذنبِ
إذا كنت تجزي الذنب مني بمثله
فما الفرق ما بيني وبينك يا ربي »[١٦]؟!

وأجد هذين البيتين قد نقشا في ذاكرتي منذ الصغر، كالنقش في الحجر، منذ حفظتهما سرايا عني أو عن « والدها » عمي إبراهيم. وكانت تقول، بعد ارتكاب الذنب: « الذنب متعة. فما ذنب الخالق أن حُرم منها »؟

فأذهب إلى عمي إبراهيم مُلمِّحًا إلى هذا الأمر. فيضحك

حتى تغشى بالدمع عيناه فيمسحهما بكمّ قمبازه[١٧].
ويقرب فمه من أُذني ويهمس فيها متغاضبًا: «ومن أخبرك، يا شقيّ، أن المتعة ذنب»؟

وتسمعنا الوالدة نتهامس. فتؤنّبه على الماشي: «لا تعلّمه العيب. فهو صغير». فأتحايل على أمرنا وأقول: «يتلو على مسامعي شعرًا». فتردّ الوالدة علينا، على الماشي: «أعرف، أعرف أنكما تتحدّثان عن المحبة». وكانت تأبى أن تخرج من فمها كلمة «حُبّ» التي هي «العيب» في ملّتها واعتقادها.

وكان عمّي إبراهيم أوّل من حَلّ عقدة لساني في قضايا «العيب». وذلك حين أصرّ على اصطحابي معه ومع بقية أفراد عائلتنا من الذكور البالغين إلى بيت خالتنا لإجراء «محاكمة ميدانية» لابنتها الصبية، إيناس، بذنب إصرارها على قص شعرها «شليشًا».

و«الشليش» هو قص شعر الأُنثى حتى قفا العنق. أو، ربما، حتى ثلثه الأعلى. ومن هنا جاءَت هذه التسمية الغريبة – «شليش». وهو «الثُلث» بالعبرية. فلم ينتشر إلاّ في فلسطين. ولم أجد صبية، من صبايا هذا الزمان، تذكر هذه التسمية. فمقصوفة الرقبة، في هذا الزمان، تعتقد أنها وُلدت مقصوصة الشّعر وأن إرساله هو «الغيّة»! كان التشبُّه بالذكور،

في زماننا، رجساً من عند الشيطان. فما بالك بمن يتشبَّه بهم خارج بيته؟!

وكانت إيناس «فتاة متحرِّرة» بمساطر ذلك الزمان. كانت تعمل «كاتبة» – ضاربة على الآلة الطابعة – في مكتب أخيها الكبير، رئيس قسم في شركة بترول العراق[١٨]. وحتى هذا الخروج عن المألوف – عن عتبة الدار أو عن وظيفة «معلمة» في مدرسة بنات – لم يُجزْهُ والدها إلاّ بعد أن وعَدَه أخوها الكبير أن «رِجْلي رجلها».

وأرادت إيناس أن تتشبّه ببقية الناس، حولها. ولم يكن حولها، في المكتب، سوى فتيات في مثل سنّها إلاّ أنهن مقصوصات الشعر «شليشاً» – يهوديات وجدت أنهن لا يختلفن عنها لا في الشكل ولا في السيماء ولا في طول الأنف ولا في اللباس ولا في أسرارهن الصغيرة إلاّ في هذا «الشليش» الغندرة. كانت، منذ أول طلعتها، «محصّنة». وهي مشتقّة من «حصان». وهي صفة كانت تلصق بالصبيّة التي تجيز لنفسها ما لا يجوز إلاّ للصبيان. وكانت لا تلعب إلاّ معنا – نحن الأحصنة – لعبة «إم وأبو» تحت سرير حديدي كانت خالتي نصبته على شرفة دارها ينام عليه رب العائلة في ليالي القيظ. وكانت تكبرنا بعدة سنوات. فأخذت بيدي إلى خزانة حديدية مقفلة على حلويات أحلى من «غزل البنات»[١٩]

وأشد غموضًا مما أخذ يصل إلينا من أفواه إخوتنا الكبار، همسًا، عن ظهور «مسرح تُعرض على خشبته بحور وجيوش بأفراسها ومدافعها المحمولة على عجلات». وهو شاشة السينما كما ظهر لنا فيما بعد.

وألحّت هذه البنت «المحصّنة» على والدتها أن تسمح لها بقصّ شعرها «شليشًا». فأبْلَغَتْ والدها بالأمر. فرفع صوته ويده عليها. فأقسمت ألاّ تعود من المكتب، في اليوم التالي، إلاّ مقصوصة الشعر «شليشًا». فانطلق النفير يدعو كبار العائلة من الذكور إلى بيت خالتي في ذلك المساء «الواعد» لإجراء «المحاكمة الميدانية» فيما لو نفّذت إيناس تهديدها.

وكان عمّي إبراهيم موجودًا في بيتنا في ذلك المساء. فدعاه الوالد إلى المشاركة في «المحاكمة الميدانية». فاعترضت الوالدة: «وما دخله»؟ فسدّ الوالد، على عادته، نيعها. فأخذ عمي إبراهيم بيدي وتمتم: «دخلي ودخله».

جلسنا في ديوان بيت خالتي الرحب نترقّب قدوم الجانية. وبحلقت عيون الذكور الكبار جميعًا بباب الديوان. وحبستُ أنفاسي، وأنا مختبئ وراء قامة عمّي الضخمة، خوفًا من أن يتنبّهوا إلى وجودي فيطردوني شرّ طردة وإلى أنني أعرف عنها ما لا يعرفون وأعرف عن نفسي ما كنت أجهل عنهم. فقد كانت سرايا سلّمتني، من زمان، مفتاح الخزانة السحرية.

ونسمع وقع أقدامها على الدرج الحجري الطويل. كانت عائلة خالتي تسكن في الطابق الثالث – الأخير في عمارة مؤلّفة من ثلاثة طوابق قائمة حتى الآن فوق شرف يطل على الوادي وعلى شارع الجبل معًا.

وتدخل من باب الديوان دخول العاصفة. وتتمسمر في وسط الديوان بقامتها الفارعة تنفض من فوقها رأسًا قصّتْ شعره «شليشًا». وتتخنصر لنا أجمعين.

وتبحث عيناها عن عينَي والدتها التي تكون واقفة عند باب المطبخ. فتنمّ عن والدتها أنّةٌ مفادها: «يا ولدي»! وتكون محكمة الذكور قد طأطأت رؤوسها الحليقة رعبًا ومذلّة. فأحبس في صدري ضحكة هستيرية. فتأبى إلا أن تَخرج خنخنة أو حشرجة تهبط على رؤوس الذكور الكبار مَنًّا وسلوى. فتبحلق عيونهم في اتجاهي أو في اتجاه عمّي الجالس إلى جانبي. ويكون صدره يهتز بما يحاول أن يخنقه في صدره مما أتيته به من حشرجات.

ويشد على يدي في الخفاء أن أتمالك نفسي. فأشد على يده في الخفاء أن يتمالك نفسه. وينفجر بركان الضحك في صدري. فأتلوّى تحت قدمَي عمي من شدّة الضحك.

لا أذكر نهاية لتلك الليلة إلاّ ووالدي، كبير العائلة الرصين الرزين الذي لم ينفجر بالضحك في حضرتنا قطُّ، يهرب من

الديوان وأولاده الذكور وعمي مهرولون وراءَه، نازلون على الدرج الحجري الطويل وهو يتمتم: «خزيتمونا، الله يخزيكم»!

ولمّا عدنا إلى البيت وجدنا الوالدة قاعدة تنتظرنا وقد ارتدت «خَلَقها».

كانت جداتنا وعماتنا يسمين أثوابهن الخارجية باسم «الخَلَق». وكانت الواحدة منهن تصطفي «خَلَقًا» عتيقًا باليًا ترتديه كلما دُعيت إلى عزاء. وكانت تدخل إلى «بيت العزا» فَتَهُمّ بثوبها – الخَلَق – وتشقّه من عند الصدر برهانًا ظاهرًا على شدّة حزنها على الفقيد. ثم تعود إلى بيتها وتُعمل فيه إبرتها رتقًا وإصلاحًا خفيًّا. وتُلقيه في صندوق ثيابها إلى حين ورود نعي جديد. فترتديه وتشقّه ثم ترتقه. وهكذا دواليك.

فما إنْ أطلّت عصا الوالد من وراء عتبة الدار حتى عاجلته بالسؤال: «هل أشقّ ثوبي»؟ فانفجرنا بالضحك مرة أُخرى. فابتدرنا عمي قائلاً، وهو يمسح دموعه بكمّ قمبازه: «الحق مش عليها. الحقّ على اختياركم الذي قلّل عقله». فلما حاولوا أن يرموني بدائه وأن ينسلوا انتهرهم عمي وقال: «بل انفكت عقدة لسانه».

وأعجبني، أي إعجاب، هذا الدور الذي أناطه بالضحك.

(٥)

قال: كان والدي، المعلم حمدي، مؤمنًا ببعث الأرواح. فلما صرخت – «أهذا أنا؟!» – لم أَلق أمامي من وسيلة أُثبت فيها وجودي المستقل سوى امتشاق معاول الشك أُعملها في أعمدة يقينه، رحمه الله.

فكان يتركني أُبربر وهو جاحظ العينين لا يطرف ولا يدافع عمّا في صدره إلا بالصمت المطبق.

وذات يوم، وكنت أوغلتُ في سرداب الشك حتى كاد آخره يلوح أمامنا، فاجأني بالتجائه إلى اللعنة علانية لأول مرة. صاح: «لعنة الله عليك وعلى معلمك»! قلت: «معلمي؟». قال: «ما قلتُ معلمك. بل عَمّك. لعنة الله عليك وعلى عَمّك»!

فهيّجت هذه اللعنة ظنوني بما اختفى من فضاء، لا نهاية له، وراء غيوم الروايات المدهشة والكشاكيل الصفراء المثيرة التي كان عمي إبراهيم يُسبغها علينا. وكنتُ، حتى تلك اللعنة العلنية، أحملها على محمل إيمانه بالله وبيوم الدين إيمانًا أقرب إلى نفوسنا المتعطّشة إلى استكناه الحياة من إيمان أخيه والدنا المعلم حمدي.

لم أسمع عمي إبراهيم يكفر بالله وباليوم الآخر، لا قبل

لعنة أخيه العلنية ولا بعدها. ولكنني أخذت أُلاحظ، منذ تلك اللعنة، أنه ينحو منحى آخر في تفسير مفاهيمنا الدينية. ففيما انهمك أخوه في التغنّي بمناقب الحياة بعد الموت، وبالبعث والنشور وبقيامة الموتى، انهمك في زيادة قدراته – المدهشة أصلاً – على تحنيط أجسام الحيوانات بعد موتها. ولا يرى من نظام النشوء والارتقاء وبقاء الأفضل سوى أن النشوء هو الخلق وأن الارتقاء هو التحنيط. وأما الأفضل – «حتى الآن» – فهو مومياءات المصريين القدماء الباقية. وهي «الأفضل لأنها باقية». وكان يصرّ على قوله – «حتى الآن» – منتظرًا أن يتفوّق عليهم أو يتفوّق عليهم من يختاره لهذا العلم ممّن يأتي بعده.

وكنت أُمنّي النفس بأنه سوف يختارني أو يختار سرايا أو يورثنا هذا الميراث مجتمعَيْن.

مجتمعَيْن؟

هل سقطت الآن «تفاحة نيوتن» أمام ناظريه فانفرجت أسارير سرِّه عن ابتسامة تشجيع كان عمّه إبراهيم أغدقها عليه في تلك اللحظة وشجعه قائلاً أنْ «سِرْ، يا ابن أخي، خطوة أُخرى ولا تُرَع»!

رائع أنت، يا عَمّه. ولكنه باقٍ، حتى الآن، مُروعًا!

هل كان عمّه إبراهيم يبحث عن معادلة الخلود؟

رائع أنت، يا عمّه. ولكنه باقٍ، حتى الآن، مُروعًا!

فهل أمسى مومياءً من مومياءاتِه منذ أن خرجت سرايا من صدره ومن رأسه؟! الله العظيم، القادر على كل شيء، لم يشأ أن يطرد آدم من الجنّة وحده. ولم يشأ أن يطرد حواء من الجنّة وحدها. فهل يشاء، سبحانه وتعالى، أن يردّ عليه روحه أو أن يردّ عليها جسمها؟ إنه السميع المجيب.

كان عمّه إبراهيم يُلمّ، إلمامًا مثيرًا للظن، بدين المصريين القدماء وبأنساب آلهتهم وفراعنتهم. وسمعه، مرة، يَدّعي أنه أقام في مصر عامًا كاملاً وهو في شرخ الشباب. قال إنه صعد في وادي النيل حتى بلاد النوبة وحدود السودان. فبحلق في عيني المعلم حمدي متسائلاً. فأقفل جفونه على سرّ مخافة البوح به. وأمّا أُم بديع فتشاغلت بغسل مواعينها، حَبًّا وكرامة[٢٠]، وهي تتمتم بكلام مجتزإ العبارات أرادت له أن يُنَفّس عمّا في صدرها دون أن يروي غليلنا بالمعرفة عن «المحبّة» نحن الصغار.

وتكون تلك التمتمة، في تلك الليلة، ما جعله يمسك بأول الخيط عن سر من أسرار هذا العم المليء بالأسرار، صدرًا وجِرابًا وكشاكيل:

أنه عاد إلى بلده من مصر بطفلة أنجبها من زوجة قبطية اسمها مارية. أسلمت روحها إلى باريها في أثناء الوضع أو

في شهر «النَّفَاس». وكانت الوالدة، إذ تبلغ هذا الموقع من التمتمة، تُعلي صوتها بالنواح:

«يـــا نـــفـــاس قـــومـــي امـــشـــي

مـــن الحـــمـــام لـــلـــفـــرشِـــه».

فأصر أهل مارية على انتزاع طفلتها من حضن زوجها «الفلسطيني الغريب المقطوع من شجرة». فهرب بطفلته عائدًا، مشيًا على قدميه حتى القنطرة. وفي القنطرة (شرقًا) استقل القطار حتى العريش. فنزل من القطار وسار ماشيًا على قدميه حتى رفح. وفي رفح انضم إلى قافلة من البدو من معارفه. فإلى غزة على ظهور الدوابّ. وظل مقيمًا أو مترحِّلاً معهم حتى هداهم إلى مراعي الكرمل ووديانه ومغائره فأقاموا فيه وهو معهم. وقال إن ابنته، مارية، ماتت في الطريق الترابي بين العريش ورفح. ولكنه حملها معه ودفنها في غزة.

قال: وكنت، أحيانًا، أفك بربرة الوالدة عليه وتكذيبه في كل خطوة من خطوات هذه «الخرّافية». فأحيانًا لم يكن اسمها مارية بل مريم. ولم تكن قبطية بل مسلمة. فلما علموا بحقيقته قتلوها وأرادوا قتله. ففر عائدًا إلى بلده. وكان القَتَلَة، في تمتمة الوالدة أحيانًا، أقباطًا فعلوها حين جهر عمي بإسلامه. وكان عمّي إبراهيم يدَّعي أمامنا، أحيانًا، أن أُرومة العائلة تعود إلى جد إسماعيلي باطني نجا من مذبحة نزلت

بالباطنية في أيام صلاح الدين. فاختبأ في كنف عائلة نصرانية كانت تقيم في قلعة بانياس (السورية). فنشأ أولاده على دينها ظاهرًا. وأما باطنًا فاختاروا واحدًا من كل جيل يورثونه ما أبطنوا. فيختار من يدسّ عليه هذا العرق بعده. وكنت أُمنّي نفسي بأن يختارني عمّي لو أمهلَنا الزمن.

قال: ولا أُخفي عنك أن تمتمات أُم بديع نَمّتْ، أحيانًا، عن يهودية مريم الإسكندرانية. فقام أخوها الكبير وطارد عمي وجاء إلى فلسطين باحثًا عن ابنة أخيه مريم. فادّعى عمي إبراهيم أن الطفلة ماتت. ولم تمت. بل يخفيها بين قبيلة من الغجر. وكانت تسميهم باسم «النّوَر». فأخذناه عنها. والعديد من أبناء جيلي رأى «نور المحبة»، لأول مرة، في عيون صبایاهم. أما أنا فَسَبَقَتْهُنّ إليّ عينا سرايا. وهي بائعة الزعرور التي كانت أُم بديع تحسب أنها تُحَفّظُني «قُرّويات النّوَر». وجعلتني هذه التمتمات أرى في سرايا تميمة حَيّة تقيني شر الغرق والأرق دون أن أعرف نص هذه التميمة.

وكنّا قد أوغلنا، صاحبي ابن شيخ عين غزال وأنا، في إعداد التمائم لاستعمال والده. وكنا نتبادل قراءَة التميمة قبل لفّها في حِرْز حريز. فلم أجرؤ على كتابة اسمها في أية تميمة من التمائم التي أعددتها. ولكنني وجدته، ذات لحظة، يغافلني ويطوي تميمته قبل أن يُطلعني على فحواها. فاختطفتها من

يده وهممت بها كي أقرأ ما فيها. فانتزعها من يدي بشراسة كنت سأشرس بمثلها لو جرؤتُ على كتابة اسمها في تميمة من تمائمي. عاتبته قائلاً: «واحدة»؟ قال: «ابنة عمي». فلم أجرؤ على إبلاغه بأن لي، أنا أيضًا، «ابنة عم». بل قلت: «تميمة لا نميمة»! فضحك شاعر عين غزال وقال: «نبغ شاعر».

كان عمي إبراهيم أول من أجّج في صدري جذوة التساؤل المطمورة تحت «الأثواب المنذورة».

– «الأثواب المنذورة»؟!

الآن، الآن فقط، برقت في ذهنه بارقة صاعقة هَدّت جدران زنزانته فانطلقت إلى العراء عصا عمه إبراهيم عريانة.

– عريانة؟!

قال: كان غريب الأطوار، غريبًا في ممشاه وفي ملقاه وفي عصاه. هل سمعتم عن عصا متلبّسَةٍ ثوب راهب صغير؟ أما أنا فلم أسمع عنها، فقط، بل شاهدتها بأُم عيني وتحسست ثوبها الرهباني وتملّكتني الرهبة كلما كنت أتحسّس ثوبها أو كان عمّي يطرحها على الأرض بينه وبيني. ولم يهدأ بالي إلاّ حين دسست يدي، خلسة، تحت الثوب وتحسست العصا تحته. وما شاهدت هذه العصا وهي عريانة إلاّ بعد مضي نصف قرن على اختفائها واختفائه. وذلك حين عاد أخي جواد، عبر رأس الناقورة، يتوكّأ عليها. وقد يكون ظهورها عارية أمام

ناظري، لأول مرّة، السبب في إنكاري أصلها وفصلها.

ولا أذكر متى أفهمتنا أُم بديع أن عصا عمّي إبراهيم «منذورة». وأنه لا داعيَ لهذا الأمر الشاذّ سوى أنه هو، نفسه، شاذّ.

وكان عمّي إبراهيم يبدي امتعاضه كلما سمع الوالدة تقول إن عصاه «منذورة». وكان يصرّ على أنها «مستورة» فحسب. وكان يلمح، دون أن يفصح، إلى أنه لن يكشف سترها، «حين يأتي الوقت»، إلا لمن يختاره من أولاد أخيه. فلم يتزوج بعد مارية. ولم يأت ذكر سرايا على لسانه أمامنا بالمرة.

– فمن أين جاء، يا عبد الله، أولاده وأحفاده الذين جاء ذكرهم على قلمك في سالف الأجزاء من هذه السيرة؟

– مثلما جاء عن أولاد آدم وحواء، في سالف العصر والأوان، أنهم «رأوا بنات الناس أنهن حسناوات فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا»[٢١].

ولما دسست يدي تحت «الثوب المنذور»، خلسة، لمستُ الطوق الفارغ التحتاني. فصعدتها إلى أعلى فلمست الطوق الفارغ الوسطاني. فصعدتها إلى أعلى فلمست الطوق الفارغ الفوقاني. فصعدتها إلى أعلى فلمست يد عمّي. فتردّدتُ، مرتاعًا، وعدت بها القهقرى. فأسرّ عمّي في أُذني ألا أتردّد

خصوصًا في اجتياز الشبر الأخير.

ولكنني بقيت متردّدًا.

وحين أجدني الآن موغلاً في مجاهل الأطواق التي نعيش دَوّارين في داخلها ولا نستطيع منها فكاكًا، وأُقدم خارجها رجلاً فتتعثر بالرجل الأُخرى، أرى في عيني ذاكرتي إلى ذلك العم «الإسماعيلي المتنصّر» أنه أول من وضع رجلي على عتبة تلك المجاهل.

كانت أطواق عصاه الثلاثة رموزًا «منذورة» أو «مستورة». وكانت، في ملّته واعتقاده، ترمز إلى عُقد شتى. ولكنها دائمًا ثلاثة ثلاثة – «منذ إيزيس وأوزيريس وحوراس».

وأمّا الطوق التحتاني فهو «عقدة أوديب». وأمّا الطوق الفوقاني فهو «عقدة إسحق». وأمّا الطوق الوسطاني فهو «عقدة برج بابل».

– «عادوا إلى آمون، آمين، ولم يتخلّوا عنه ولن يتخلّوا إلى أبد الآبدين، آمين»!

كان عمّي إبراهيم يقرفص معنا حول طبلية العشاء، أو الدرس، ويحدثنا عن آلهة المصريين القدماء وعن إلههم الأكبر آمون، أو آمين، وكيف كانوا يُنْهُون جميع صلواتهم بالدعاء له – آمين!

ثم جاء أخناتون وكفر بآلهة شعبه وعلى رأسهم الإله الأكبر

آمون أو آمين. وبطش أخناتون بكهنة آمون، أو آمين، بطشًا شديدًا. والتجأ كهنة آمون، أو آمين، إلى أعالي جبل سيناء هربًا من بطش أخناتون. وفرض أخناتون عبادة قرص الشمس على شعبه. وهو آتون أو آتين. فلما مضى أخناتون انقضى عهده وعاد الناس إلى دين آبائهم وأجدادهم: آمين، منذ خمسة الآف سنة وإلى يوم الدين – حظروا على أنفسهم الارتفاع شبرًا واحدًا فوق ما بلغوا من ارتفاع في برج بابل قبل أن تُبلبل ألسنتهم.

ولماذا، إن لم يكن لسبب لعنة برج بابل، اختاروا الكبش «إبيس» – وهو إله العلم والمعرفة ونصير الكتبة والمكتبات – ضحية عن أبينا إسحق بن جدنا إبراهيم الخليل؟ وماذا يراد لآدم المسكين أن يفهم من خلع لقب إبليس على الشيطان الرجيم؟

وفي إحدى هذه «الجلسات»، وكانت أصابعنا مشدودة إلى الطبلية حتى لا تزلزلها الأرواح والعفاريت، أرخى عمي إبراهيم قبضته عن مقبض عصاه «المستورة»، أو «المنذورة»، لأول مرة أمامنا. فإذا هو منحوت على شكل صليب غير مألوف الشكل: بيضوي الهيئة تتوسّطه فتحة كان من الممكن أن تحتوي وجه ابن آدم. وله ذراعان ممدودتان أُفقيًّا أشبه بذراعَي ابن آدم يرتدي ثوبًا له كُمّان فضفاضان. ويأتي، تحت

الشكل البيضوي، جسم خرطومي ينتهي بقاعدة عريضة شبيهة بما يبدو من انتفاخ ثوب كاهن عند قدميه.

وأضعه الآن أمامي وأرسمه مثلما هو أمامي لا زيادة فيه ولا نقصان:

ونتسابق على فك طلاسم هذا المقبض العجيب. فمن قائل إنه المطران ومن قائل إنه الإمام. وأراه الآن أشبه برجل فضاء سقط على أرضنا بعدّته الكاملة. وقد يكون ما حول رأسه كمّامة تؤهله لخوض الحرب الكيماوية الموعودة[٢٢]. وأعلم الآن أنه «مفتاح الحياة» أو «مفتاح النيل» في ملّة المصريين القدماء واعتقادهم.

أمّا عمي إبراهيم فتمهّل علينا حتى «كعينا». ثم أبلغنا أن هيئة المقبض هي علامة الاستفهام البدائية الأُولى: «إكسر الطرف الأَيسر أو الطرف الأَيمن من الطوق فتظهر لك علامة الاستفهام العصرية».

– «والذراعان، يا عمّاه»؟

– «علامة الشطب. ممنوع»!

فتبربر الوالدة بهمس مسموع أن «ريحته طالعة». كان يحمل في جرابه أمزجة عجيبة من الأعشاب البرية ذات رائحة نفّاذة أشبه برائحة روث البقر، إضافة إلى طيور وأفاعٍ محنّطة. وكان أبلغنا أن ما «طلعت ريحته» هو «الأمونيا». وأن «الأمونيا» من «آمون» أيضاً. كان الكهنة يجلبون أبقارهم وعجولهم إلى معبده في مصر العليا فيجتمع روثها في باحة المعبد. فاهتدوا إلى «الأمونيا» وسمّوها باسمه. فنردِّد، حين تبلغ مسامعنا بربرة الوالدة: «آمين».

فأسترق الخطو إلى صخرة سرايا. وأُحدث سرايا عن آمين و«الأمونيا». وأضمّها إلى صدري فتتنهّد وتقول: «آمين»!

فأشمّ في ثوبها عطر الكرمل وحبر البحر. وأشمّ في ثغرها عطر الصنوبر المقشَّر. ويكون الكرمل قد عودنا على خشخشة أوراق الصنوبر الجافّة المتساقطة عليه عبر القرون. فلا نلقي لهذه الخشخشة بالاً.

وأضع رأسي على حضنها. فأشمّ رائحة «الأمونيا». فأرفع عينَيَّ إلى عينيها وأسألها: «هل هو والدك»؟

فتتّسع عيناها حتى لا ضرورة إلى جواب. فأبحث عن بقايا الكرمل فيما وراء طوق عينيها. فتسألني: «ومن

أكون أنا لك»؟

– «أنت الكرمل، يا سرايا».

– «والبحر ورمله وأسماكه وأصدافه»؟

– «والبحر ورمله وأسماكه وأصدافه».

– «والحوت»؟

– «والحوت الذي آوى يونس إلى جوفه».

– «وألفظك»؟

– «حين يلفظني الكرمل والبحر».

– «لن ألفظك»!

ويكون آتون قد مال إلى المغيب.

ويفرش الشفق سجادته الأُرجوانية لاستقبال آمون. فتنفر من فوق صخرتها عائدة إلى مغارة عشيرتها قبل أن «يأكلها الذيب». فأظل أُصلّي: «آمين، آمين».

وأحملها في صدري – سريرة تعود إلى مكانها أسيرة. وأعود إلى بيتنا بين مصدِّق ومكذِّب.

وأترقَّب، في تلك الليلة، مجيء عمّي إبراهيم. فإن لم يأت نمت مبكرًا واستيقظتُ مبكرًا.

(٦)

كان يغيب عنّا شهراً. وكان يغيب عنّا عامًا، أو أقل من العام أو أكثر، حتى ننساه نحن الأولاد.

ثم يظهر في بيتنا، فجأة، بلباسه التقليدي – «القمباز» الروزا وفوق «القمباز» «صاكو» سوداء اللون شابت أطرافها. وقد لفّ خصره بحزام عريض مصنوع من قماش «الديماية» – أي «القمباز» – على قامة فارعة وممتلئة باللحم والشحم من شدّة الأُبَّهة. يعلوها رأس ضخم تغلِّفه سحنة دكناء إلاّ من شاربَين كثّين يزيدان في غور عينين أقعتا في بئر ذي فوهتين اشرأبّتا لمشاهدة الدنيا الواسعة فوق البئر. وأراه، بعينَيْ ذاكرتي، مقبلاً علينا وقد اعتمر طربوشًا أحمر قصيرًا لفّ حوله فوطة بيضاء أشبه بعِمامة موظف تركي. وفي يمينه عصاه «المنذورة» أو «المستورة» ذات المقبض الذي أخفاه بيده عن أنظارنا وقتًا طويلاً حتى تخيلناه قُدّ من رأس عفريت أصلع.

وعَلّقَ على كتفه اليسرى جرابًا كان عَرّفَهم عليه باسم «جراب الكردي». وهو الاسم الذي اخترته، فيما بعد، لزاوية أُسبوعية نشرتها في مجلة «المهماز» الأُسبوعية الحيفاوية التي أصدرتها في العام ١٩٤٦ شراكة مع المرحومين حنا نقارة ومحمد أبو زايد وناصيف المجدلاني وعصام العباسي.

وطبعناها في مطابع المرحوم منير حداد في وادي النسناس. فأفلسها. فتوقّفت عن الصدور في العام نفسه. وقيل إنه قبض، ثمن سكوتها الأبدي، مبلغًا غير معلوم دفعه المسؤولون عن كتيبة من كتائب «الجيش العربي» (شرق الأردن) كانت معسكرة في حيفا العتيقة – جزاء عن صورة كاريكاتيرية نشرناها في غلاف أحد الأعداد وكان تفتّق عنها ذهني ونفّذها فنان يهودي مطبوع ومغمور حتى يومنا هذا، ظهر فيها تاج حديدي ضخم ينيخ بثقله على صدور ناس عراة. وكتبنا، تحت الصورة: «التاج الذي سيهدى، قريبًا، إلى أمير عربي». وكنّا أول من كشف النقاب عن هذه «الهدية». وانتظرنا أن تقودنا هذه الجرأة إلى توسيع انتشار الصحيفة. وكنت للهدف نفسه نشرت على غلاف المجلة، قبل هذه «الصيحة»، صورة حسناء عارية. واكتفينا بإظهار جزئها الأعلى. وكتبنا تحتها: «البقية في العدد القادم»! فانتشر العدد القادم، فحسب، انتشارًا واسعًا. ثم انهمرت علينا شتائم رجال الدين والدنيا. وقيل إن «المهماز» توقّفت عن الصدور لأن رئيس تحريرها، الذي كان مبعدًا عن صحيفة «الاتحاد» الإبعاد الأول، عاد إلى الحبيب الأول:

«قد قيل ما قيل، إن صدقًا وإن كذبًا

فما اعتذارك من قول إذا قيلا»؟!

كان العم إبراهيم يفتح باب بيتهم دون طرق أو استئذان. فتهبّ العاصفة على حياتهم الرتيبة. وما كان يقتحم عليهم حياتهم الرتيبة إلاّ وقد أغرقهم الظلام الرتيب بلياليه الرتيبة.

ويكونون قد أقعَوا على الحصيرة حول طبلية توسطها مصباح أبو فتيلة. ويكونون على عشاء متأخِّر أو على مراجعة إكراهية لفروضهم المدرسية.

قال: كنا نسمع خبط عصاه «المنذورة» أو «المستورة» على أرض المصطبة وراء عتبة الباب. فنتوقّف عمّا نحن فيه ونشنّ أطراف آذاننا العليا. ويؤذن خبط حذائه بهبوب العاصفة. فتنظر الوالدة في عينَي الوالد نظرة العتاب الرتيبة على أنه «إنسان عاجز». فنعلم أن توقُّعاتنا صدقت.

ويتصنَّع الكبار منّا المضي في شؤونهم الرتيبة. ويمعنون في هذا التصنُّع فيزداد يقيننا بصدق توقُّعاتنا. فنقفز متسابقين على فتح الباب لعمّنا العائد «حاملاً محمّلاً». فنجده قد خلع الباب خلعًا. وكان يسبقنا، أحيانًا. فنلقاه واقفًا شامخًا، بعصاه وجرابه وطربوشه، في وسط الديوان. وأتثاقل في استقباله علمًا مني بأني سيِّد الموقف من حيث أني أعلم عنه ما لا يعلمون ولا يعلم. وأتثاقل موهمًا نفسي بأنني «المختار».

كنّا، حين نلقاه ماثلاً في وسطنا، نستبيح القيود التي كانت تقيِّد حياتنا اليومية ونستبيح الرتابة الملعونة ولكن بدون

قباحة. وكنا نلفظها «أباحة». ونعتبر القباحة والإباحة صنوين. وكانت حياتنا اليومية مقيّدة بطاعة الوالدين واخوتنا الكبار وبطاعة البنات للبنين. وتحيط هذه الأطواق بنا ما دمنا داخل عتبة الدار. فإذا تخطّيناها ضاعت الطاسة. وكانت «مسبّة الدين» بمثابة «الخيانة العظمى» جزاؤها العقوبة العظمى: أخونا البكر يلقي القبض على المذنب قبض الفجاءَة. ويكتّفه ويربطه بمقبض الباب. ثم يستلّ حزامه الجلدي من حول خصره ويضعه في يد والدنا العجوز. فينهال المعلم حمدي على مؤخِّرة المذنب ضربًا بالحزام الجلدي. وكنّا، في أثناء تنفيذ العقوبة العظمى، نتصنَّع الصراخ الشديد. لا من شدّة الوجع بل لنخفي عن أخينا البكر شدّة حنان الوالد على ولده.

أمّا حنان الوالدة فجعلها أعجز حتى عن المشاركة في هذه التمثيلية. فما كانت تقوى على قصاص سوى أن تنقضّ على المذنب وتوقعه أرضًا وتقع معه. وتأخذ رأسه بين فخذيها، الأحب على رؤوسنا من وسادة محشوة بريش النعام، وتفرك بين شفتيه قرن فلفل حَرّاق تَعَوّدْنا عليه منذ ذلك الحين واستذوقناه. فانتقلت إلى زيت السمك أو إلى زيت الخِرْوَع، عقابًا «فيه الشفا».

وكانت تلوم «عمّكم وما يخرج من جرابه» على ما كان

يخرج من أفواهنا من كلام «أكبر منكم». ولكنها امتنعت عن تبليغ والدنا، أو أخينا البكر، بتجاوزاتنا هذه.

ولم تستطع السكوت عني حين لاحظت تفاقم عزلتي عن أقراني وطول انطوائي في «غرفة البير» على كشاكيل كان عمي إبراهيم يدسّها في يدي خلسة. وأشد ما أقلقها غيابي المتلاحق عن البيت في أيام العطلة الصيفية. كنت أطلب منها أن «تلفّ لي عروسًا» – رغيفًا من خبز الصاج ملتوتًا بالزيت ومرشوشًا بالزعتر أو بالملح – أحملها وأحمل كتابًا من كتبي وأعبر سياج حديقة عباس وأمضي صاعدًا في جبل الكرمل حتى أغيب عن أنظارها. ولا أعود إلاّ وقد عاد سيف الشمس إلى غمده أحمر قانيًا.

فأبلغت الوالد – «خلّيه يدبّرك» – فلم يجرؤ على تبليغ أخينا البكر بالأمر. وعليه انتهى الأمر.

وكانت سرايا، في بداية هذا الأمر، أشد حذرًا من حذري. فكانت، حين يحمرّ وجه الغسق، تنتفض من قعدتنا فوق الصخرة وتفرّ هاربة إلى قومها وهي تقول: «أُركض قبل أن يأكلك الذيب».

فكنت، في بداية هذا الأمر، أعود إلى البيت وقد احمرَّ طرفا أُذنيّ كما لو أنني داخل على امتحان مدرسي.

حتى تعوّدت على هذا الأمر مثلما كنت تعوّدت على

قصاص الفلفل الحَرّاق واستذوقته.

وازداد طيشنا بازدياد اطمئناننا. فأعلنتُ أنني بوركت بنظر حادّ فأستطيع مراجعة دروسي على ضوء القمر. وفي ليلة اكتمل بدرها وصفا جوّها أخذتُ حقيبتي المدرسية واخترقتُ السياج المائل وانتحينا، سرايا وأنا، ظهر صخرة غير مطروقة في حديقة عباس تحت طريق الجبل.

كنّا التقينا فوقها في ليال سابقة ولم يأكلنا الذيب. فاستأنسنا بالوحشة واطمأنت قلوبنا إلى صمت الليل من حولنا. وغاب البدر وراء غيوم صيفية مزدحمة. فازددنا استئناسًا بالطبيعة من حولنا حتى أصبحنا، والطبيعة من حولنا، حلمًا لطيفًا واحدًا ما كان يأتيني إلاّ في ساعة الفجر الكاذب.

وظلّ هذا الحلم يأتيني، فيما بعد، ليلة ليلة دون أن أذكر مصدره أو أن أجد له تفسيرًا، حتى أصبحت يقظتي حلمًا لا موطئ قدم فيه لحلم سرايا:

أكتشفُ في ذاتي، فجأة، القدرة على الطيران. فأقفز في الهواء قفزتين متلاحقتين دون الاضطرار إلى لمس الأرض بقدمي بين القفزة والأُخرى. فأجرؤ على إتيان قفزات ثلاث. فأطير في الفضاء.

أطير فوق سطوح الجيران. فتتعاظم ثقتي بنفسي وبقدرتي على الطيران. فأُحلِّق فوق ساحل البحر. وأطير محلِّقًا فوق

البحر في اتجاه الشمال. هذه عكا! وأنتزع بيدي قلعة خربة من قلاع السور، وأحملها عائداً إلى الجنوب. هذه حيفا. وهذا الكرمل. وأقطع فضاء الكرمل وأُلقي بحِملي على شاطئ عتليت (ومن يرى عتليت من بعيد يرى قلعتي هذه حتى اليوم).

وأعود أدراجي إلى سماء الكرمل. هذه قبة عباس من تحتي. أقترب من بيتنا. فأشد جسمي إلى أسفل وأُحاول التمهُّل كي أهبط في فناء الدار. فأجدني عاجزاً عن الهبوط. بل أرتفع إلى أعلى على الرغم من إرادتي.

وأمرّ، وأنا محلّق، من فوق سطوحنا. ها هو وادي النسناس. لأنزل! فأعجز. وأراني محلّقًا فوق البحر. وأُوغل في التحليق فوق البحر. وينتابني الفزع. وأشَدّ الفزع إدراكي أنْ لو صدقت نيّتي على الهبوط لاستطعت الهبوط. فكيف أتردّد؟ وأين أهبط؟ وما ضَرّني أن أمضي في الطيران أعلى فأعلى؟!

– «من هذا»؟

صاحت سرايا، فجأة، فهبطتُ هبطة طائر أصابت رصاصة صياد مقتله. هل شاهدتم هبوط طائر أصابته رصاصة صياد؟ لا يهبط هبوط طائرة أُصيبت بعطل. لا يحرك جناحيه ولو تحريكًا بطيئًا كي يهبط هبوطًا هيّنًا. إنما يهبط هبوط حجر أصم أُلقي على الأرض من علٍ – هبوطًا عموديًا.

الفصل الرابع

الـغـول

«فرددناه إلى أُمه كي تَقَرّ عينُها ولا تحزن ولتعلم أن وَعْدَ الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون».

(سورة القصص، الآية ١٢)

(١)

قال لي صاحبي، حين أخبرته بما أُلاقيه من عُسر في إتمام نقمة هذه الرواية على نفسي – وهو ما لم أُلاقِ أشد منه أو مثيلاً له في وضع[١] سابق: «هذا لاعتقادك أنها آخر ما تضع ثم تقعد»[٢].

كان عادني بعد «عطلة يأس» طويلة قضاها في خارج البلاد، قضاء يليق بعطلة يأس، وقدرًا.

فأعجبني ما لاحظه على مسلكي من «شبوبية رجعية» على الرغم من تثاقل همَّتي وبراح ثقتي في قدرتي على نقل رجلي إلى الدرجة السبعين في سُلّم مَتُوشَالَح[٣].

قال: «أجدك كمن يبدأ حياته من جديد». قلت: «فهل من بديل»؟

كان خارجًا، لتوّه، من درب الآلام بعد أن قطعها ذهابًا وإيابًا آخر مرة قبل أن «خرّفني» بهذه «الخُرَّافيّة». وانتابتني تعاسة مدهشة من حيث أنها أعادتني ستين عامًا إلى وراء: لم يكن معي سوى قرش واحد استأجرتُ به درّاجة هوائية ليوم واحد. وكنّا جماعة. واستأجر أقراني كل ما كان لدى المؤجِّر من درّاجات. وما إن هممنا بالانطلاق نحو مصب «النعامين»[٤]، وامتطيت درّاجتي، حتى اصطدمت عجلتها الأمامية بحديدة

مدبَّبة بمسامير. فتفجَّرت العجلة مخروقة في عدّة أماكن. فوقعنا على الأرض وقعة شديدة كسرت المقبض وعنق المقبض. فعدت إلى المؤجِّر أُطالبه بدراجة أُخرى سليمة. ومضى أقراني في سبيلهم منتظرين أن أتدبَّر أمري وأَلحق بهم. فأبدى المؤجِّر أسفه على خلوّ مخزنه من أية درّاجة. وأعاد إليّ قرشي، رحمة بي، وقال: «اذهب إلى دكان آخر». وكان يعلم أن لا دكان آخر في حارتنا. فناشدته أن يجد لي حلاً، هو نفسه. فانتهرني واستعاد القرش وقال: «قسمة ونصيب»!

وفي رواية أُخرى أنني استأجرت الدرّاجة لوقت محدَّد أمضيته في ردّ جنزيرها إلى موقعه من الدولاب. وكان جنزيرها رخواً – «قسمة ونصيب» – فكان يفلت عن طوق الدولاب المرّة تلو المرّة فأردّه المرّة تلو المرّة حتى انقضى الوقت المحدَّد وأنا قابع على الأرض ومشغول بتثبيت الجنزير فوق الطوق. فلما عُدت إلى المؤجِّر وطلبت منه إلغاء الاستئجار الأول الفاشل ومنحي «فرصة جديدة» بالقرش نفسه أجابني: «ربنا، سبحانه وتعالى، لا يفعلها. فكيف أفعلها»؟!

وكانوا، قبل «حرب الأيام الستة»، يجيزون للنصارى «غير السياسيين»، من العرب في إسرائيل، السفر إلى «الأماكن المقدّسة» في الأردن في أعياد الميلاد لدى الطوائف المسيحية المختلفة. وكانوا يستثنون الشيوعيين وأقرباءَهم وأنسباءَهم.

وكانت «قرعة السفر» تنال الرومي الكاثوليكي في موعد عيده. والرومي الأُرثوذكسي في موعد عيده. والأرمني في موعد عيده. فإذا لم تأته في موعد عيده جاءَته في موعد الطائفة الأُخرى. أو تمنّى أن تأتيه. وكانوا، في هذه المناسبات، يلتقون أحبابهم الغُيَّاب. وفيهم جاءَت الأُغنية الفيروزية:

«وسلامي لكم
يا أهل الأرض المحتلة.
يا منزرعين في منازلكم
قلبي معكم وسلامي لكم».

وكان «المرفوض» يشعر بالأسى وبالخجل أحيانًا. فإذا سافر الروم الكاثوليك، ووجده أهل حارته مقيمًا، سألوه: «ألم تطلع قرعتك»؟ أجاب: «سأطلع في عيد الروم الأُرثوذكس». فإذا لم يطلع قال: «في عيد الأرمن». وهو آخر الأعياد. وكان أحد أنسباء أحد الشيوعيين قد عمّم أنه «طالع» فتعاقبت الأعياد ولم «يطلع». وجاء «عيد الأرمن» ولم «يطلع». فسألوه: «متى تطلع»؟ أجاب: «في عيد السركس». أي الشركس. ولا «عيد ميلاد شركسي» كما تعلمون.

ولكن، ما هذه الحكاية ما أردت أن أحكي لكم:

قيل إن أحدهم «طلع». وكان يُسمح لهم بحمل مبلغ محدَّد من المال – ورقة واحدة – فدخل صاحبنا إلى القدس

العتيقة في الصباح جائعًا. فشاهد «الكعك المقدسي» الشهي المنظر والطعم لأول مرّة في حياته. فاشترى «كعكة» مع الزعتر. وقدّم للبائع ورقة المال الوحيدة لكي يفكّها ويأخذ حقّه. فطلب البائع منه أن يحرس «الكعك» حتى يذهب في السوق ليجد لها فكّة. ومضى البائع وبقي صاحبنا ينتظر عودته حتى المساء ثم عاد أدراجه إلى القدس الجديدة دون أن يلتقي أحباءَه الغيّاب أو أن يضيء شمعة في كنيسة المهد في بيت لحم – «قسمة ونصيب». وقال، معزِّيًا نفسه، إنه قضى يومه في القدس القديمة يبيع «الكعك» – «كعك، كعك مسمسم يا نصراوية» – حتى غابت الشمس واستردّ جزءًا من ماله – «قسمة ونصيب».

أما قسمة المسلمين، من «غير السياسيين» فكانت أدهى وأمرّ. فكانوا، حتى «حرب الأيام الستة» يجيزون لهم التقاء أحبائهم الغُيَّاب في مواسم أعيادهم أمام حواجز نصبوها على الحدود – في وادي عارة أو في بيت صفافا (بين القدس وبيت لحم). وما كانوا يعودون من هذه «الطلعة» إلا وأجسادهم تنزف دمًا. وكان الحكام العسكريون يبرِّرون ما أنزلوه بهم، من ضرب ومن إطلاق رصاص عليهم، بـ«الهيجان» تارة و«بتسلل أشخاص لا يحملون تصاريح لهذه الزيارة» تارة أُخرى. وكفتهم إجازة الحج إلى البيت الحرام، منذ عدة

سنوات، شر اللقاءات الدامية. ينتقلون على جسر دامية «دوز دوغري» إلى مكة المكرمة. فيبحثون عن أحبائهم الغُيَّاب فيقعون، أحيانًا كثيرة، في وسط معارك دامية عربية عربية وإسلامية إسلامية، وقعة القيادة الفلسطينية – وقعة وحدوية عربية. وأجدني الآن قاعدًا على التلفون أو على التلفزيون أتتبّع أخبار المهجَّرين الجدد من الخليج ومن بلاد أجوج وماجوج – وراء أي سياج سنلتقيهم وفي أية «أماكن مقدسة» هذه المرة؟ لا فرق بين نصراني ومسلم. كلّنا في الهمّ فلسطيني! فالدين لله والتيه للجميع «وسلامي لكم يا منزرعين في منازلكم»!

– إحم، إحم!

– «قلبي معكم وسلامي لكم»!

– كثِّر خيرك وخيره وخير السامعين!

وفي رواية ثالثة أنني استأجرت تلك الدرّاجة. وكانت سليمة وسالمة. فأزمعت أمري على المضي بها إلى ما وراء مصبّ النعامين. فلَعلّ في هذه الشطآن أسماكًا أُخرى. فلحق بي المؤجِّر على دراجته «الطزطز»[٥]. وقال: «لا نص، في وثيقة التأجير، يجيز لك المروق إلى ما وراء شط النعامين. والوقت المؤجَّر لك أقصر من الوقت الذي تستغرقه في قطع هذه المسافة».

فقطع عبد الله حبل أفكاري وعاد إلى «خُرَّافيّته» قائلاً:

كنت غارقًا، لتوّي، في أتون من تأنيب الضمير على صمتي المزري عن استغاثات «سرايا بنت الغول» التي تكرَّرت حتى تعوَّدت عليها واختلط عَلَيّ أمرها. فالقلب ينبض بنوعين من النبضات: النبض الطبيعي ونبض التأنيب والحسرة.

هل تذكر، يا أحمد دحبور[٦]، حكايتي مع «أحمد المصري» التي حدثتك عنها فأهاجت خواطرك؟

عمّا أصابني، يومًا، من ضياع في وسط العاصمة الإغريقية أثينا – في ساحة «الدستور» (سينتاچما). قلت، في نفسي: أطوف في أنحاء المدينة وأعود إلى فندقي مهتديًا بموقع متميِّز قريب من موقع الفندق. فنظرت حولي فانجذبت إلى عمارة جديدة شاهقة الارتفاع لمّا يتموا إعدادها للسكن. والتفتّ إلى واجهة زجاجية في طابقها الأرضي شدّ ناظري إليها خطوط متعرِّجة من الدهان الأبيض ممّا يخطّه الزجّاجون على واجهات زجاجية لم يتمّوا إعدادها خوفًا من أن يرتطم بها عابر سبيل أعشى. فإذا الخطوط المتعرِّجة كلام عربي فصيح صفّحته فإذا هو «أحمد المصري». قلت، في نفسي: أطوف في أنحاء المدينة وأعود الى ساحة «سينتاچما» وأهتدي إلى فندقي إلى جانب «أحمد المصري». ففعلت. وعدت إلى ساحة «سينتاچما». وبحثت عن واجهة «أحمد المصري».

فلم أقع له على أثر. فرحت أُنادي، من قراح قلبي: «أين أنت يا أحمد المصري»! فسمعني شاب أسمر يعمل في مطعم متخصِّص بأطباق من السمك ومن أصداف البحر وثماره الجمَّة. فأرشدني إلى فندقي. وقبل طلوع الفجر التالي ذهبت إلى المطار مسافرًا في رحلة أُخرى.

ماذا يكون انطباعك عنّي لو اعترفت لك بأن الخط المدهون، على تلك الواجهة الزجاجية، نَمّ عن اسم آخر هو «سرايا بنت الغول – يابا»؟ وأنني أضعته وأنني سافرت عنه قبل طلوع الفجر التالي؟!

كنت غارقًا، لتوِّي، في أتون من هذه الحسرة. وكنّا نراجع، صاحبي وأنا، النص الأصلي (باليونانية وإلى جانبه الترجمة الإنجليزية الحرفية) لمؤلف أفلاطون الشهير – «الجمهورية»[٧]. وكنت طلبته منه لأمر في نفس هذا الأتون.

وهذا الأتون هو هذه «الخُرَّافيّة»، السيرة المسيرة. وكدت أن أصف هذا الأتون بنار جهنّم الحمرا، من شدَّة ما أُقاسيه من آلام محرقة، لولا أن أعادت إلى ذاكرتي ما كنت تعلَّمته في الصغر عن حكمة «كهف أفلاطون» الفلسفي وما يسبِّبه نور المعرفة من آلام محرقة في العينين لأول مرّة كأنها محاريق جهنّم الحمرا. وكان عزائي برأفته، سبحانه وتعالى، حين ألقى بآدم وحواء على وجه الأرض ولم يُلق بهما في النار وهو القادر

على كل شيء ولا مردّ لمشيئته جلّ قدره.

وقرأنا، في الكتاب الرابع من «الجمهورية»، الوصف التالي – كان يقرأ بصوت عال وكنت أهزّ رأسي بصوت غير مسموع:

«تَخَيّل رجالاً يسكنون في نفق تحت الأرض. ولهذا النفق مدخل طويل مفتوح على الضوء بعرضه كله. تصوّرهم مقيَّدي الأرجل والأعناق منذ الطفولة. فلا يتحرَّكون ولا يستطيعون النظر إلا إلى أمام. وتمنعهم قيودهم عن تحريك رؤوسهم إلى خلف. ثم تصور انتشار ضوء من نار مشتعلة في مكان عال وعلى مسافة من ورائهم. وبين هؤلاء السجناء، وفوقهم، طريق انتصب، على طوله، جدار منخفض الارتفاع أشبه بالستارة التي ينصبها عارضو مسرح العرائس، أمام المشاهدين، ويعرضون عرائسهم من ورائها.

قال: أتخيَّل ذلك كلّه.

قلت: فتستطيع أن تتخيَّل، إذن، رجالاً من وراء ذلك الحائط يحملون أدوات من جميع الأنواع، وقد رفعوها فوق الجدار، وتماثيل بشر وتماثيل حيوانات أيضاً مصنوعة من حجر ومن خشب ومن جميع أنواع الموادّ. وبعض الحاملين يتكلم. وبعضهم يلتزم الصمت.

قال: عن ظلال عجيبة تتحدّث وعن سجناء عجيبين.

قلت: شبيهون بنا. ولكن، في البداية، أجبني: هل تظن هؤلاء الرجال قادرين على أن يروا أي جزء من أجسامهم أو من أجسام معايشيهم سوى الظلال التي عكستها النيران على جدار الكهف أمامهم؟

قال: كيف يستطيعون هذا الأمر وهم مضطرون إلى الإبقاء على رؤوسهم بلا حِراك طول حياتهم؟!

قلت: ثم ألا يكون هذا الأمر صحيحًا، أيضًا، في شأن الأشياء المحمولة أمامهم؟

قال: بالطبع.

قلت: فلو تكلموا، فيما بينهم، ألا تعتقد بأنهم سيسمُّون الأشياء المارة أمامهم بأسماء خيالاتها؟

– إلزامًا.

– فلو ردَّد سجنهم الصدى، وأطلق أحد الحاملين من فمه صوتًا، هل تعتقد أنهم سيفترضون أمرًا سوى أن المتكلِّم هو الخيال المارّ أمامهم؟

– بحقّ زيوس لا أفترض غير ذلك.

– ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء السجناء سيعتقدون أنه ما من حقيقة موجودة سوى خيالات تلك التماثيل المصنوعة.

– هذا أمر مؤكد.

– فتخيَّل، بعد ذلك، أمرهم في حالة خلاصهم وشفائهم

من هذه القيود ومن هذا العبث. كيف يكون عليه حالهم إن وقع لهم، في مجرى الطبيعة، أمرٌ، هو أن أحدهم تحرَّر من قيوده فوقف على قدميه منتصبًا وأدار رأسه إلى خلف ومشى رافعًا عينيه نحو الضوء، فجأة، فشعر بالألم وأعشى الضوء عينيه فلم يعد قادرًا على التمييز بين الشخوص التي كان قد شاهد خيالاتها في السَّابق؟ كيف يكون، في رأيك، جوابه لو قيل له إن ما شاهده في السابق هو مجرَّد خداع ووهم وأنه الآن فقط، وقد اقترب من الحقيقة وتوجّه بناظريه نحو الأشياء الحقيقية، أصبح يبصر حقًا؟ ولو أشاروا له على الشخوص العابرة وأحرجوه بالأسئلة عن ماهيتها، ألا تعتقد أن الأمر يلتبس عليه وسوف يَلْقى نفسه ضائعًا وسيرى ما شاهده من شخوص في السابق أنها أقرب إلى الحقيقة ممّا يراه الآن؟

– أقرب إلى الحقيقة.

– ولو ألجأوه إلى التّحديق في الضوء، مواجهة، أما كان يؤلم عينيه هذا التّحديق فيشيح بناظريه عن الضوء ويهرب إلى تلك الأشياء التي كان قادرًا على تمييزها ويعتبرها أوضح وأشدّ دقّة من الشخوص المشار إليها؟

– صحّ!

فقلت: فلو قام أحدهم بدفعه، بالقوة، في الطلعة الوعرة وذات الارتفاع الشديد، ولم يفكّ عنه إلاّ بعد أن دفعه نحو

نور الشمس دفعًا، ألا تعتقد بأنه سيجد هذا الدفع مؤلمًا ويحاول التهرُّب منه وأن أشعة الضوء ستُعشي ناظريه، حين يخرج إلى النور، فيعجز عن رؤية الأشياء التي نسمِّيها حقيقة؟

– سيعجز عن ذلك في اللحظة الأُولى.

– وسيكون في حاجة إلى فترة نقاهة، تتعوَّد فيها عيناه على الضوء فيرى الأُمور فوقه.

(. . .)[٨]

ولو تَذَكّر مسكنه السابق وما كان توهّمه فيه من حكمة، ولو تَذَكّر زملاءَه في القيد، ألا تعتقد بأنه سيكون سعيدًا بهذا التغيير ويرثي لحال زملائه؟

– هذا، بالتأكيد، هو شعوره.

– فلو كانت جرت العادة، في وسطهم، على منح ألقاب الشرف والامتيازات والجوائز إلى الرجل الأسرع في رؤية الخيالات العابرة والأحسن في حفظ مراتبها وأسبقياتها وتعايشاتها والأنجح، بذلك، في التنبُّؤ بما هو آتٍ منها – هل سيرغب في هذه الجوائز والأوسمة وسوف يحسد أُولئك الذين شرَّفهم هؤلاء السجناء وحكموهم عليهم، ويعظِّمهم، أم أنه سيشعر مع هوميروس[٩] ويُفَضّل، ما دام عائشًا على وجه الأرض، أن يكون قِنًّا مستعبدًا أو فقيرًا مُعدمًا وأن يتحمَّل الأعباء كلها على أن يرضى بحالهم ويعيش حياتهم؟

– بلى. سوف يختار كل عبء على مثل هذه الحياة.

(...)

– فلو قُيِّض لهم أن يضعوا أيديهم على الرجل الذي حاول فكّ قيودهم ودفعهم نحو الأعلى واستطاعوا قتله، أما كانوا قتلوه؟

– من المؤكّد أنهم كانوا قتلوه!»

(٢)

كان صاحبه، وهو متخصِّص بالتراث الإغريقي القديم، يتلو على مسامعه التّرجمة الإنجليزية لحكمة «كهف أفلاطون» قراءَة مُجَوَّدة. فلما وصل إلى المصير «المؤكّد» لمن «حاول فك قيودهم ودفعهم نحو الأعلى» انفرجت أساريره عن ابتسامة خبيثة، استهزاء مؤدبًا بمشاعره أو احتقارًا مُدبّبًا لقدرات «سجناء الكهف» على إنزال ذلك المصير به في هذا الزمان.

دوافع جمّة دفعتهُ، في آخر العمر، إلى السير في دروب الآلام بحثًا عن سرايا. وعلى رأسها أسنان حادة كأسنان سمكة القرش أنشبتها في جسمه الحي يقظةٌ متأخّرة على أنه قيِّض له، منذ أوائل العمر، من جاء وحاول أن يدفعه في الطّلعة الوعرة وذات الارتفاع الشديد وأن يوجِّهه نحو نور الشمس. فنسيه. نسيه فعلاً بعد أن كان تناساه من شدّة القهر!

«ليس بالخبز، وحده، يحيا الإنسان»!

صحيح، بالتأكيد صحيح.

فبالإضافة إلى الحياة بالخبز هناك انطلاقة النّفس والنّظر في ما حولها من أفلاك.

ولكن ما العمل، يا أبتاه، والحياة نفسها غير متوفِّرة لنا، ناهيك عن الخبز وحده، ولا فلك آمنًا لنا ولا فلقة فلك ولا

فلقة فلقة فلك؟!

فكيف نُلام على انشغالنا بالخبز وبفلسفة الخبز؟!

صاح: لماذا، يا عمَّاه، لم تلتجئ إلى القوة بل تركتني وأخذتَ سرايا معك؟

كنت دسست يدي خلسة في جراب عمِّي إبراهيم - «الإسماعيلي المتنصِّر» - وسرقت من مكنوناته أجمل ما أعدّه من أدوية وأعشاب برِّية - «سرايا بنت الغول» - في اللحظة التي اصطدمت رجلاي فيها، فجأة، بصخرة باطنية في «مجرى الطبيعة»[١٠] فصرخت، من شدّة الوجع: «هل أنا في حُلم أم في عِلم - أما من بديل عن هذا المجرى»؟!

أظل أهرب وأهرب نحو المعاذير الرعديدة، هروبًا من حقيقة تكمن لي وراء كل أجمة وكل موجة، وراء كل سور وكل حائط بيت وكل قرنة معتمة: أنه ما من شغل أشغلني عن سرايا، تناسيتها حتى نسيتها، سوى..

سوى إيش؟!

كيف أشرح لكم هذه الحقيقة، عن تلوُّث مياه الشرق العذبة وطبيعته العذراء، دون أن أنحرف عن «مجرى» هذه السيرة - المسيرة؟ فهي ليست، في ملّتي واعتقادي، أُطروحة فلسفية بل واقعًا حسِّيًّا معاشًا، طرحة عجين مختمر على صفحة فرن لن يوقدوا ناره إلاّ في العَشِيَّة: الخبز العيش والعشاء والعشية.

وما كان عمي إبراهيم يطرق بابنا، بعصاه «المنذورة» أو «المستورة» إلاّ في العشيّة. وفي العشيَّة كانت سرايا تنفلت من بين يدي عائدة إلى عشيرتها خوفًا من أن يأكلها الذيب. وحين مضت العشيَّة وحلّ الليل، ولم تنفلت من بين يدي، أكلها عمي إبراهيم. ولا أعود الآن إلى ذكر سرايا والبحث عنها، وراء كل أجَمَة وكل موجة، وراء كل سور وكل حائط بيت وكل قرنة معتمة، إلاّ في هذه العشيَّة! فماذا عدا مما بدا؟

أجبته: ما عدا إلاّ هذا الذي بدا. وما لم يبْدُ ما عدا ولن يعود. وأتحدّى أنطون شماس[11] أن يترجم هذا الطباق والجناس إلى أية لغة قريبة أو بعيدة وعلى رأسها لغة «أكلوني البراغيث» التي تغندرت بها لغتنا الصحفية، ضِغثًا على إبَّالة[12]، وتعويضًا عمّا أخذوه عنّا، من بين ما أخذوه منّا، من مثل «المنقل» و«كَسّح» و«دخيلك» و«تسلم» و«دبكة» و«مبسوط» أو «مبسوطة» وتجمع على «مبسوطيم» جمعًا مذكّرًا سالمًا وعلى «مبسوطات» جمعًا مؤنّثًا سالمًا. ولتسلموا وليسلموا. وما دامت اللغة سالمة لا حرج علينا ولا هم يحزنون.

فسألني: هل كان عمي إبراهيم هو الذي «أكلها»؟

فكيف انتقلت عصاه «المستورة» إلى يد أخي جواد وقد تجرَّدت؟

قلت: ما هي الحقيقة؟

وإلى متى توهم نفسك بأنك، بهذا اللفّ والدوران، تسلم ونسلم من هذه الحقيقة؟

فابتسم لأوّل مرّة أمامي وقال: احملوني على مهلكم مثلما حملتُ نفسي طويلاً. ودعوني أحمل إليكم هذه الحقيقة «حَبّة حبّة» مثلما قطفتني حَبّةً حَبّةً وعلى مهلها.

حتى ركلتني الفجاءَة، «في مجرى الطبيعة»، بِرِجْلها وحُمَّ «يوم الحشر»!

قلت: كان ڤلاديمير إيليتش أُوليانوف[١٣] استوحى حكمة «كهف أفلاطون» حين وضع «حكمة المستنقع». وخطا، بها، خطوة واسعة المدى إلى أمام في مجرى المعرفة الإنسانية. وكان من حقِّه ألاّ يذكر هذه الحقيقة مفترضاً أن الحزب الذي أنشأه هو حزب مفكّرين لا يجهلون مكتسبات الماضي ولا ينفونها ولا ينقشون ما حقّقه، هو نفسه، من مكتسبات على شاهد ضريحه آياتٍ مُنْزَلة. فلا نلومنّ «لينين» بل لِنَلُمْ أنفسنا على جهلنا وغباوتنا أننا لم نخرج من كهف إلاّ إلى كهف آخر في طريقنا نحو نور الشمس.

ولمّا كان من حقِّه أن يعود ويحمل إلينا «كهف أفلاطون» على صينية من الذهب الإبريز فمن حقِّكم أن أعود وأحمل إليكم «كهف لينين»[١٤] على أسنّة الرماح:

« ها نحن سائرون، في جماعة متراصّة، عبر ممر وعر وشديد الارتفاع. ويأخذ الواحد منّا بيد الآخر أخذًا ثابتًا. محاصرون نحن بالأعداء من كل جانب. وعلينا التقدُّم إلى أمام على الرغم من قصف نيرانهم غير المتوقَّف تقريبًا. كنّا اجتمعنا، باختيارنا الحر، وراء هدف النضال ضد العدو لا وراء التراجع، عائدين إلى المستنقع تحتنا الذي لم ينفكّ سكانه عن تقريعنا، منذ اللحظة الأُولى، على انفصالنا (عنهم) في جماعة متميِّزة وعلى اختيارنا طريق الكفاح عوضًا عن طريق التراضي. وفي لحظة من اللحظات يأخذ أفراد من بيننا في الصراخ: دعونا نعود إلى المستنقع! فنعيب عليهم هذا الوهن. فيردُّون علينا معاتبين: ما أشدّ جهلكم! ألا تخجلون من إنكاركم حريَّتنا في ندائنا إليكم أن تسلكوا طريقًا أهون وأسلم! بلى، أيها السادة، فإنكم أحرار لا في توجيه هذا النداء إلينا، فقط، بل في أن تذهبوا أنتم أنفسكم حيثما شئتم الذهاب حتى العودة إلى المستنقع! وصراحة نعتقد أن المستنقع هو المكان الجدير بكم. ونحن مستعدون لأن نقدم إليكم كل عون في تحقيق مبتغاكم هذا. ولكن، فكُّوا أيديكم من أيدينا. ولا تتشبّثوا بنا ولا تلوثوا كلمة الحرية السامية. فإننا نحن، أيضًا، أحرار في النضال ضد المستنقع وليس ضدّه فقط بل أيضًا ضد أُولئك الذين يعودون إلى المستنقع»!

قال: أمشي، الآن، في درب الآلام فلا يعزِّيني عمّا مضى إلاّ أنّ ما هو آت أطول مدى بل لا نهاية له. فإن لم يكن في الدورة القادمة، فوق «الطزطز» الجديد المُجَنّح، فَبِكُمْ أنتم يظل أطول مدى بل لا نهاية له.

كان عمّي إبراهيم، «الإسماعيلي المتنصِّر»، مُحِقًّا في إجمال حكمة الحياة في جملة واحدة: «إياك والتردُّد في الخطوة الأخيرة»!

قلت: من قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، أرّقني المصير الذي كانت تؤول إليه الحركات الشيوعية في شرقنا القريب والبعيد، كل عشر سنين أو خمسة عشر عامًا مرّة تلو المرّة – مصير القرمطية والإسماعيلية والباطنية في زمانها. وكانت أول من نادى المنتسبين إليها بـ«يا رفيق»!

فلماذا لم نرفق بأنفسنا؟

ألم يكفنا عَنَتُ الكفاح ضد «المستنقع» فضممنا إليه من تَرَفّقَ بنفسه وبعياله؟

كيف يكون حالنا، اليوم، لو تعاملنا معهم تعاملي مع المتشائل؟ وكيف لا ألوم نفسي على تردُّدي في الخطوة الأخيرة؟

قال: الآن، الآن أفهم ما أراد أن يبلغنا إياه عمي إبراهيم في روايته عن نفسه أنه «إسماعيلي متنصِّر»!

« إسماعيلي بالمقلوب » كنت يا عمّاه – ثورة السواد والأعراب والعيّارين والنّجارين والحدّادين والحذّائين والفعلة على الظُّلم والظَّالمين. ولكن، ليس بالعنف الباطني بل بالتسامح العلني.

كتابان فتحا عيني على البصيرة: كتاب باسم « مذكراتي » وضعه ليو تولستوي وأخرجه عمّي إبراهيم من جرابه ودسّه في يدي فيما كانت أُم بديع مشغولة بإعداد زوّادات أولادها. وكتاب باسم « جامعاتي » لمكسيم غوركي وضعته في يد سرايا ردًّا مهذبًا على عتابها لي عن إحدى غيباتي الطويلة.

قلت لها: « نحترق لنضيء السبيل ». فقالت: « أُطفئك بحناني ».

فقرأت لها أُسطورة « الشاب دانكو » التي رواها مكسيم غوركي: أن قومًا شجعانًا اخترقوا غابة كثيفة الأشجار متشابكة الأغصان حتى حجبت الشمس عن شعابها. ظلام دامس ورطوبة شاملة تطفئ كل شعلة. فاختاروا « الشاب دانكو » ليقودهم في ليّات هذه الغابة ويخرجهم منها إلى فسحة الضوء الموعود. وبحث « الشاب دانكو » عن عيدان وعن أوراق جافّة ليشعل أمامهم نارًا تبدِّد الظُّلمة. فلم يجد. ولكنه لم ييأس بل مدّ يده إلى صدره وامتشق قلبه من حنايا ضلوعه وأشعله وحمله مشعلاً أمام قومه الشجعان يضيء

لهم السبيل. ولمّا بلغ بهم مبتغاهم ومبتغاه سقط مضرّجًا بدمائه – شاهداً على أننا لم نخترق طوق «عقدة إسحق» بعد مضي ثلاثة آلاف عام عليها.

كانت سرايا تنظر في عينَيَّ نظرة الارتياب بنفسها أكثر من كونها نظرة الارتياب بنفسي.

وكانت سرايا تأخذ بيدي وتقفز بي عن صخرتنا وتعتذر عن نفسها إلى نفسها قائلة: «احسبني واحدة من القوم السّائرين وراء ذلك الشاب. سألتقط قلبك وأُطفئه بحنان صدري ثم أُعيده إلى صدرك. ليش لأْ، يابا»؟!

ولا تفكّ يدها من يدي.

وتصرخ في وجهي: «لن أفكّ يدي من يدكّ. فلا تفكّ يدك من يدي».

وحلمت حلمًا.

رأيت، فيما يرى النائم، قوم «دانكو» أنفسهم وقد خرجوا من الغابة متشابكي الأيدي. وكان «الشاب دانكو» يقف في مقدِّمة صفِّهم الطويل. وكان «الشاب دانكو» معافى. وكان قلبه ينبض بنشوة الحياة في حنايا صدره. وكان «الشاب دانكو» يأخذ بيد الذي يسير وراءَه. وكان هذا الثاني يأخذ بيد الذي يسير وراءَه. وكان قلبه، هو أيضًا، ينبض بنشوة الحياة في حنايا صدره. وكان هذا الثالث يأخذ بيد من يليه

وإلى من لا تستطيع العين أن تحصيه أو أن ترى نهاية لهذه الصفوف المتراصَّة – صفًّا صفًّا – متشابكي الأيدي وبلا نهاية مرئيّة.

ومن تَعَثّر منّا تباطأنا حتى يقوم من عثاره. ومن تردَّد منّا أخذنا بيده حتى يكفّ عن تردُّده. ومن سقط، إعياءً، دعوناه إلى الاتكاء علينا حتى يستعيد عافيته. فلا يسقط من صفوفنا إلاّ من أسقطه العدو برصاصه. لعنة الله على ستالين وعلى خلفائه أجمعين. ما ولدنا إلاّ أحرارًا لا قلعة محاصرة لا ينالها العدو إلاّ من الداخل. وما نالنا إلاّ بهذه البدعة غير البشرية.

كنّا دائمًا، نحن لا عدوّنا، ضحيّة العنف. فلا يحق لك، يا صديق الشباب سمير مارد[١٥]، أن تتساءَل عن تضحية رفاقك – هل ذهبت هباء؟! لم تذهب هباء وما ذهبوا ضحيّة بإرادتهم بل ذهبوا ضحيّة لعنف أعدائنا يا سمير مارد. والضحيّة لا تُلام على ذهابها ضحيّة بل يُلام أعداؤنا الذين يرفضون أن يذهبوا. «لا تلوموا الضحية»[١٦] – هل تذكر؟!

قال: هذا كلام شعراء وأُدباء! قلت: وهل للشعر وللأدب مهمّة أُخرى؟

قال: كان عمّي إبراهيم، «الإسماعيلي المتنصّر»، شاعرًا أديبًا، إذن. فقد كان مثال التسامح. ولو كان جرابه يحتمل احتواء الأسد والحَمَل حيّين وغير محنّطين لأقنعهما بالتآلف.

وكانت أجمل هداياه – سرايا – تمدّ يديها وتبسط كفَّيها فتحطّ عليها فراشات الغدير وعصافير الكرمل ونوارس البحر آمنة مطمئنّة.

وحين ارتجّ وادي العشاق بضجيج انفجار في السوق سبقني الطير إلى حضنها الواقي:

– «افتح حضنك أنت أيضًا، يابا».

ولكنّهما علّماني أن التسامح نقيض التمسحة.

قال:

«من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت إيلام»[١٧]

فلما مسكني مع سرايا، في مساء ذلك اليوم، غاب غيبته الأخيرة التي لم يعد منها حتى يومي هذا ولم يجد مَنْ يورثه عصاه «المستورة» إلا أخي جواد – عَرّاها ثم أورثها.

سوى مرة واحدة حين خُيل إليّ أني شاهدت عصاه «المستورة» مجرّدة من سترها وظهرت عوراتها الثلاث. وسمعت صوته بأُذنَيَّ هاتين.

كنت أعمل سائقًا لرافعة كهربائية تعلو عن الأرض ثمانين مترًا في بناء برج من برجَي التبريد في معامل تكرير البترول بالقرب من مصب نهر المقطّع في بحر حيفا. فلمّا أتموا تشييد المعامل وشرعوا في تكرير النفط وجدتني مسؤولاً عن طاقم

من العمال نُشرف على وحدة تكرير. فشرعنا في العمل بنظام النوبات. كل نوبة من ثماني ساعات. ويتغيّر موعد النّوبة مرّة كل أُسبوع.

فإمّا أن نبدأ في النّوبة في السادسة صباحًا وننهيها في الثانية من بعد الظهر. وإمّا أن نبدأها في الثانية وننهيها في العاشرة ليلاً. وأمّا نوبة العاشرة ليلاً فتنتهي في السّادسة صباحًا. وهكذا دوالَيْك.

وكان وصولي إلى البوابة الرئيسية، لأختم بطاقتي وأدخل إلى عملي، يستغرق ساعة من الزمن على أقل تقدير – أقطع، مشيًا على الأقدام، مسافة تزيد على الكيلومترين حتى موقف الباصات في حيفا العليا. فنسافر في الباص، حتى البوابة، في وقت لا يقل عن نصف ساعة. فأكون ملزمًا بالبدء في الإعداد للعمل، من اغتسال وارتداء ثياب العمل وتمشيط شعر وتحضير زوّادة خلال ذاك تذمُّر، من قسمتي ونصيبي، قبل نصف ساعة على الأقل من موعد مغادرتي البيت. فإذا كانت نوبتي صباحية توقظني أُم بديع في الرابعة صباحًا. وأُغادر الدار في الرابعة والنصف.

وتملّكتني، منذ ذلك الزمان، أُلفة خاصة إلى رائحة النفط الخام صحبتني حتى هذا اليوم وشبَّهْتُها بالأُلفة الخاصة إلى رائحة الطابون التي يحملها نازح فلسطيني معه إلى حيث

ألقت الزلازل رحله.

وأعزو هذه الأُلفة إلى رائحة أشدّ إيغالاً في الزمن من رائحة النفط الخام الذي أَلِفَتْه خياشيمي منذ أن دخلت في تلك البوابة. وأخالني ولدت مع هذه الأُلفة. وهي رائحة عمّي إبراهيم وثيابه وجرابه. وكنت شممتها عطرًا يفوح به صدر سرايا.

فلمّا سألتها عن هذه الرائحة – من أين لها هذا العطر الأنيس؟ أجابتني: «الإنس فيك وفي أذيالك» فصحت: «ولكنني لستُ الغول». فضحكت ثم أجابت: «ما غول إلاّ الشيطان».

وكان اسمها سرايا. فسمّيتُها باسم «سرايا بنت الغول» التي كانت جدتي «مريم الحيفاوية» تنوّمنا بها كل ليلتين مرّة. وأمّا في الليلة الثانية فكانت تحكي لنا حكاية «جبينة» التي «سرقها النّوَر».

فَسُرَّتْ بهذا اللّقب أيّ سرور.

وكانت تكايدني، أحيانًا، بأن تقول: «أنت الغول». فأُرخي شفتي مثلما كانت أُم بديع ترخي شفتيها علامة المزج بين عدم الرضى والاستكانة. يحوقل المحوقلون وأمّا حوقلتنا فبارتخاء الشفتين. فتقلِّدني سرايا. وتعالج شفتيها بالارخاء فتنفرجان عن «ابتسامة سرايا». بلادنا الأسيفة مملوءَة

بابتسامات الصبايا. ولقد عشت وشفت صبية فلسطينية تبتسم في وجه والدتها وهي محمولة – تلك الصبية – على حمالة إلى المستشفى بلا يد واحدة. والكرمل مملوء بالصخور التي كانت تنبع ماءً عذبًا كأنه «السبيل». ولكن، مثلما لا يستطيع حيفاوي ذو عينين أن يغفل عن «صخرة سرايا» بين الصخور وعن «عين سرايا» بين العيون فإنه لن يغفل عن «ابتسامة سرايا».

وحكاية «سرايا بنت الغول»، في روايات جدتي «مريم الحيفاوية»، حكاية مثيرة للدَّهشة في تعدُّد بداياتها وتعدُّد أواخرها واختلاف تفاصيلها – وأراني، في هذه «الخُرَّافيّة» وفي ما قبلها، ذا عرق دسّاس يرجع إلى جدّتي «مريم الحيفاوية» في رواياتها المتناقضة والمنفتحة على رواية منفتحة على رواية وهلمّ جرًّا كأنها شهرزاد وقد شاخت بعد «ألف ليلة وليلة» ولم يبق لها في الليالي سوى أحفادها تحكي لهم حكاياتها حتى يناموا أو تنام:

«كان ياما كان ويا مستمعي الكلام صبيّة حلوة اسمها سرايا. ودرجت سرايا على الانطلاق في الغابات بعيدًا عن قريتها. تقطف أكواز الصنوبر وتشويها على ورق العنبر وتقشّرها وتلمّ حبّاتها الشهيّة وتأكلها. أو تعود إلى والدتها لتزيِّن به الأرُزّ المفلفل والمزعفر. وكانت تركض وراء أفراخ

الحجل وتعود بفرخة أو بفرختين إلى والدتها. وكانت تغزو خلايا النّحل البريّة وتعود بأقراص من العسل الأشقر وقد انتفخت وجنتاها بلسع النحل فبدا كل خد أشبه بالتفّاحة القرقشاني.

وما كانت تعود إلى والدتها إلاّ وقد حملت طاقة من الزهور البرية. وكانت كل الزهور، في زماننا يا ستّي، زهورًا برية. وكانت تهديها يومًا إلى والدتها ويومًا إلى والدة ابن عمها. وكانتا أرملتين تتقاسمان ما ورثتاه عن الزوجين الراحلين من شظف العيش.

وفي يوم من الأيام غابت الشمس ولم تعد سرايا. فهام ابن عمِّها على وجهه يبحث عنها – في أغوار الوديان وشواهق الجبال وفوق القمم. وكان الحرّاثون، أولاد الحلال، قد أبلغوا أهلها أن غولاً يقيم في أعالي الجبل قد وقع في حبِّها، حبًّا أبويًّا، فاختطفها وتبنَّاها وأسكنها قصرًا شيّده لها في العلالي.

وكانت سرايا اشتهرت، في تلك النواحي، بجمالها الخلاّب وبشعرها الطويل الذي أرسلته ضفائر ضفائر.

هام ابن عمها على وجهه ينادي: سرايا، يا بنت الغول، دلّي لي شعرك لأطول! فسمعته سرايا. فدلّت ضفيرة من ضفائر شعرها تعلّق بها ابن عمها وتسلّق عليها ودخل من نافذة القصر المطلّة على الوادي.

وكان «أبوها» الغول غائبًا. فروت عطش ابن عمِّها وغذّته واستعدَّت للهرب.

وفي العشاء عاد الغول. فأخفت ابن عمِّها تحت سريرها. فشمّ الغول رائحة غريبة. فصاح: ريحة إنس! فردَّت عليه متصنِّعة الغضب: ريحة الإنس فيك وفي أذيالك يا أبا الخماخم!

فسكن روعه. فأكثرت له من الخمرة حتى أخلد إلى النوم. فحملت صرَّة ثيابها وفرَّت من القصر مع ابن عمِّها».

وفي رواية أُخرى، من روايات جدّتي «مريم الحيفاوية»، أنها مزجت السمّ بطعام الغول أو بشرابه. وفي رواية ثالثة أن ابن عمِّها التقط سيف الغول، بعد أن نوَّمه الشراب، وحزَّ رأسه. وفي أُخرى أنها دلَّت ضفيرتين من ضفائر شعرها فنزل ابن عمها على إحداها ونزلت على الأُخرى.

– «بس كيف، يا ستّي»؟!

وتكون ستّي قد أطبقت شفتيها على نوم عميق.

وكانت سرايا، حين كنت أروي على مسامعها أُسطورة «سرايا بنت الغول»، تضحك «ضحكة سرايا» وتحرِّك يديها كما الطائر يحرِّك جناحيه ليطير، وتقول: «هذا هو قصري».

أمّا في تلك الليلة، حين صاحت «من هناك؟»، فلم تحرِّك جناحيها بل سقطت عن الصخرة في حديقة عباس إلى هاوية

الغياب دفعة واحدة – سقوط الطير وقد أصابته رصاصة الصيّاد. هل رأيت سقوط الطير وقد أصابته رصاصة الصيّاد؟

وأما مَنْ كان «هناك» فما عاد إلى بيتنا منذ تلك الليلة.

ولعلي لم ألقَ سوى طيفه، في صباح يوم ماطر وغائم وشديد البرودة من أواخر العام ١٩٤٠، حين تركت الدار ساعيًا إلى رزقي في نوبة الساعة السادسة.

وكان الضباب الكثيف يحجب الطريق أمامي. وكنت، لأمر ما، محبطًا. فاصطدم رأسي بعمود كهرباء نُصب على الرصيف أمام مدرسة البنات[١٨]. فانطرحت على عتبة الرصيف. وزخَّ المطر على أشدِّه والسيل جارف. ولا حيلة لي سوى البكاء. فلم أعد أرى العابرين من قدّامي ومن جانبي ومن ورائي. ولا أسمع وقع خطواتهم ولا هم ألقوا إليّ بالاً – كل يركض ليلحق بنوبته.

واستبدَّ بي الخوف من أن أكون تأخَّرت عن موعد الباص. فأيقنت بانهيار عالمي فوق رأسي وبأنني المسؤول عن هذا الانهيار. وقُضي الأمر ولا مردّ لقضائه.

طأطأت رأسي يائسًا وشهقت شهقة ملأت صدري بعبير سرايا. فاختلست نظرة إلى ورائي أبحث عن الكرمل. فوجدت ضبابًا أعادني إلى ما قبل بدء الخليقة – حين «كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة»[١٩]. غمرني

« وجه الغمر ». وأمّا « روح الله يرفّ على وجه المياه »[٢٠] فمرّ عنّي مع المارِّين من حولي لا أسمع وقع خطواتهم ولا هم يلقون إليّ بالاً – كل يركض ليلحق بنوبته.

وإذا بعصا عمِّي إبراهيم، وقد تجرَّدت، تنتصب بين قدمَيَّ عمود نور نزلت الملائكة عليه من السماء ثم صعدت عليه إلى السماء ولم تأخذني معها. فرحت أُصعِّدُ قبضة يدي على هذا العصا فَلَمَسَتْ أصابعي الطوق الأوّل، « عقدة أُوديب ». فسمعتُ صوته من فوقي يقول: « انطلق »! فَلَمَسَتْ أصابعي الطوق الثاني، « عقدة برج بابل ». فرجع إليّ صوته قائلاً: « انطلق »! فَلَمَسَتْ أصابعي الطوق الثالث، « عقدة إسحق ». فصاح بي أنِ « انطلق »! فَلَمَسَتْ أصابعي مقبضها السرِّي – مفتاح المعرفة – وقبضة يده فوقها. فانتهرني أن « انطلق »!

غير أنني كنت أجفلت ورددت يدي إلى نحرها.

فسمعت صوته الأجش، وهو الصوت الذي أدمنتُ على محاكاته منذ أن « طقَّت جوزتي »، يعاتبني أنْ:

– « سَبْعَك »!

فأعدت قبضتي إلى عصاه فوجدتني أقبض الريح. فركضت في الشارع أُسابق الريح هروبًا من عصاه التي تخيّلتها ورائي تستحثُّني.

ومنذ ذلك التجلّي ما شعرت، يومًا، بأنني عائد إلى ما قبل

الخليقة – وحيدًا ما معي سوى الضباب، الضباب من تحتي والضباب من أمامي ومن خلفي والضباب من فوقي وفي عينَيّ وفي خياشيمي وفي أُذني وحلقي وصدري – إلاّ سمعت صوته يلاحقني:

– «انطلق»!

فأقوم على قَدَمَيّ وأمضي على قَدَمَيّ عائدًا من عالم ما قبل الخليقة إلى عالم الحقيقة والتردُّد في الخطوة الأخيرة.

(٣)

من مِنّا، نحن الذين لبسنا «طاقية الإخفا» في العام ١٩٤٨ فلم تهتدِ إلينا عيون التراحيل، مَنْ لم يسمع عن «فراشة» أو من لم يحظَ بأياديها أو لم يأتِها ضارعًا متوسِّلاً؟!

وفي تلك الأيام كانت «فراشة» أُسطورة مكنونة في حرز حريز من صدورنا أروع ما فيها بقاؤها مخفيّة عن عيون التراحيل كما لو أنها قُدّتْ من عيون ليل على الرغم من انتشارها انتشار أشعة الصبح في فجر يوم ماطر. فهل كانت عيون الليل، لو كانت لليل عيون، ترى أشعة الصُّبح!

أما والحديث ذو شجون فأذكر حاكمًا مسكينًا صاح، حين جاءَه موت الفجاءَة: «مش معقول»[٢١]! ومات وهو غير مصدِّق. فأُعزّي النّفس بأن الحاكم حاكم ولو عَمّرَ أكثر مما عَمّر لُبَد[٢٢]. فلا يأتيه الموت إلاّ وهو غير مصدِّق. ولا يموت إلا وهو مكذِّب موته. ولا يصدِّق إلاّ أنه سوف يبقى حاكمًا في جنّة الخلد:

ويجلس إسحق رابين تحت قدميه. ويحمل إليه الراب شاخ رأس شمعون بيرس على طبق من ذَهَب. ويكون نوبيّ مصري واقفًا وراءَه، بطربوشه الأحمر، يهشُّ له وينشّ بمروحة عريضة من سعف النخل أو من ريش الطاووس. ويكون ملائكة صغار

«حلوين»، من بنات «الشريط الحدودي»[٢٣]، يسعون بين أرجل الخالدين اللاّبدين على الطنافس، المتّكئين على وسائد من ريش النعام. وفي أيدي الملائكة الصغار «الحلوين» أطباق من نخيل غزة أو خان يونس أو رفح أو أريحا، المجدول بألوان فاقعة، مملوءَة بما لذّ وطاب من التفاح البحتري[٢٤] ومن أكؤس الشراب النواسي[٢٥]. ويدورون بالطعام وبالشراب على هؤلاء الخالدين البليدين اللابدين على الفرش والطنافس. ويضرب الحاجب الأرض وراء الباب بصولجانه ثلاث مرات. فيتوقّفون عن شرب الأنخاب وتشرئب الأعناق نحو الباب. فيدخل عليه وعليهم، وعلى السَّامعين الكرام، مناحيم بيجن وقد التف بثوب أبيض أشبه بالأكفان. ويفك يديه من أكفانها ويمدّهما نحو الجالس على العرش في خشوع وفي ضراعة وهو يتلو ويُجَوِّد: «قدوس. قدوس. قدوس. إسحق[٢٦] ملك إسرائيل، حيّ حيّ»! فيردِّد الخالدون البليدون وراءَه: «حيّ. حيّ. حيّ»!

ولو كان لنا بيت قريب لأحضرنا لكم طبقًا من زبيب.

قلت: ينجيني من عقابهم المتأخِّر أنهم ما صدقوا ولن يصدقوا ومن المستحيل أن يصدقوا.

أول ما سمعتُ عن «فراشة» أنها امرأة نحيلة خفيفة الطول والعرض سريعة الحركة ولا ترتدي من الثياب إلاّ الخفيف الهفّ

كأنّها الفراشة. وقيل إنها تخترق الحدود من دون أن يُلقوا إليها بالاً أو أن ينتبهوا إلى وجودها. وقيل إنها تنقل الرسائل بين الباقين وبين النازحين وتخفيها في زُنّار خفيف في لون جسمها تزنّرت به على جسمها. كانت تقطع الوادي[٢٧] بين رميش[٢٨] وحرفيش[٢٩] في اللحظة التي تمر فيها الدورية الإسرائيلية من أمام صخرة أقعت وراءَها «فراشة».

وقيل إنها تعيد الزوجة إلى زوجها المقيم والفتاة إلى خطيبها، «متسلِّلين» و«متسلِّلات» عبر الوادي. كانت خفيفة الحركة كفراشة، يقظة كابن آوى. فلم يُسمع عنها ما سُمع عن غيرها في ذلك الزمان – أنها سقطت في كمين أو فقدت «متسلِّلاً».

وكانت تخبِّئ «بضاعتها البشرية» – كما قيل – في كهف من كهوف الكرمل الخفيّة. وكان الماء العذب متوفِّرًا في ذلك الكهف. وكان يجري سلسبيلاً من نبع في غوره البعيد. وأمّا الطعام فمن زوّادة «المتسلِّل» العائد إلى بيته وإلى أهله أو من بقول البرّ. وأمّا الأطفال «المتسلِّلون» فكانت تسقيهم الحليب الطازج من أثداء عنزات لها ترعى خارج الكهف في النهار فإذا جاء الليل آوتها داخل الكهف حتى لا يأكلها الذيب، كما قيل.

ويظل «المتسلِّلون» مستترين بالكهف عدة أيام حتى تعود «فراشة» إليهم وقد حملت إلى كل واحد منهم «قسيمة

تسجيل» يكون شبّان فلسطينيون أصايل ومتعلِّمون، من بين «المتعاونين مع الحكومة» قد سجّلوا تلك الأسماء عليها من قبل عودة أصحابها إلى وطنهم «متسلِّلين».

ولمّا كنّا «أُمة واحدة ذات رسالة خالدة» – أي مثلنا مثل بقية خلق الله – فقد انتقت الحكومة من بيننا فئة من الخصيان، أو من الذكور الذين خَصّتْهُم بالخصي، وزَّعتهم على الحدود. فكانوا يقطعون آذان «المتسلِّلين» و«المتسلِّلات» بعد أن يُرْدُوهم قتلى. وكانوا يجمعون آذان القتلى في أكياس خيش يسلِّمونها، في آخر الليل، إلى ذوي الإذن بهذا المنكر – «وصولات» بِغَلَّةِ تلك الليلة. وسرت شائعة أن «فراشة» لا تهابهم بل هم الذين يهابونها. وأنهم، لأمر ما، يغضُّون الطرف عنها وعن «حمولتها» البشرية. وتَقَوّل المتقوِّلون عليها أنْ «ما من شيء ببلاش إلا العمى والطراش». وقيل إن قومًا، في ذلك الزمان، شاهدوا شابًّا شاب شعره وصُمِلَتْ أُذنه. فسألوه: «من أين لك هذا»؟ أجاب: «الذي خلَّص الطفل موسى من الموت، بأن أوحى إلى ابنة فرعون أن تنتشله من النهر وأن تردّه إلى أُمه، لا يعجز عن إقناعهم بالإبقاء على حياتي، رحمة بأُمّي، والاكتفاء بأُذني، شيكًا بلا رصيد».

وكانوا، في تلك الأيام، لا يشاهدون مصلوم الأُذن إلاّ ونادوه بيا موسى. وكنّا ندخل في أزقّة عكا القديمة وأطلال يافا واللد

والرملة وحيفا التحتا، في تلك الأيام، فلا نجد حولنا سوى المكسوحين والعرجان والعوران من مواليد أواخر القرن التاسع عشر. فنزهو بشبوبيّتنا الشواذّ ونُصَحِّفها عجيبة من عجائب الرحمن أنزلها على هذه البقيَّة من شعبنا إيذانًا، من لدنه سبحانه وتعالى جلّ قدره، أن لا شأن له بما نزل على شعبنا من مصائب بل هي رجس من عند الشيطان الرَّجيم الذي غافلنا وقد «راحت علينا نومة» لن يعود إليها شعبنا ما دمنا أحياء لا ننام ولا نخلّي غيرنا أن ينام. فلمَّا تقادم الزّمن علينا صرنا «أنتيقا». وبعضنا أصبح «مايسترو» على تلك الموسيقى.

وشاع، في ذلك العصر والأوان، أن «فراشة» – أو من يجاريها في هذه العناية الإلهية – موجودة على كل حدٍّ من حدود هذه الدولة المطاطية الحدود: في الجليل وفي المثلث وفي النقب. وأما في البحر فلم نكن، بعد، في حاجة إلى «سفينة العودة» نظرًا إلى أن بلاد العرب لم تكن قد لفظتنا، بعد، إلى الأرجنتين وسومطرا وشارلستون. ولا أخالها إلا تسمَّت باسم «سفينة العودة» لو كنَّا قد بلغنا، في ذلك الزمان المبكِّر، ما بلغناه الآن من هذا الشأو البعيد أو يقل قليلاً أو يزيد كثيرًا، لا سمح الله العليّ القدير وأعوذ به من الشيطان الرجيم ومن كل هُمَزَةٍ لُمَزَة.

وفي الجليل كان اسمها «فراشة». وفي المثلث اشتهرت باسم

« النحلة ». وأما في النَّقب فعرفت باسم « المَنّ » تارة وباسم « السلوى » أُخرى. وحفظوا سِرّها أنها « فراشة »، نفسها، على كل الحدود. إلا أنها كانت تنزل على قوم بالاسم الذي يطيقونه. وكانت تنزل على القوم الآخرين باسم آخر يطيقونه.

ولمّا كانت الضربات تنهال علينا من حيث ندري ومن حيث لا ندري فقد انتابتني الظنون في « فراشة » وفي فعالها الأشبه بفعال الساحر أو من ورث عن أجدادنا « طاقيّة الإخفا ». إلاّ أنني أخفيت هذه الظنون في موقع النسيان من صدري خوفًا من أن يحترق بنيران الندامة على خطيئة لم يرتكبها آدم.

فمنذ بدء الخليقة أدرك أبونا الأول أن « الجنّة بلا ناس ما بتنداس ». فكيف تركت ناسي يخرجون من الجنّة ولم أمت دون هذا الخروج؟!

– لم تترك، يا اختيار، خيطًا مقطوعًا بيننا وبين أصلنا إلاّ وصلته!

– ولكن، كم من خيط مقطوع بينهم وبين أصلهم وفصلهم وصلناه بأيدينا؟

– لكل منّا، يا اختيار، سراياه الهائمة على وجهها كما هامت يمامة سيِّدنا نوح بحثًا عن اليابسة قبل أن « غيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ »[٣٠]. فمتى يُقضى هذا الأمر؟!

(٤)

كان القيظ على أشدّه. لا نسمة ولا نأمة. وقد أظهر اليوم وأظهر عنفوانه. وكنت جالسًا وراء مكتبي في الجريدة أُدخِّن وأحتسي القهوة وأتصبَّب عرقًا وأكتب مقالاً.

وكان مكتبنا قائمًا، بعد، في طرف من أطراف «نادي الأرمن» في فسحة من الأرض كانت مهملة في ذلك الوقت المبكِّر. يحدّها الوادي في غربها، من تحت، وشارع الخوري في شرقها من فوق. وكان أولاد العرب يعفِّرون وجوههم وثيابهم بترابها ويسمُّونها، تيمُّمًا وتيمُّنًا، «جنينة الشوعيّة». وتَحَمَّلَنا وجهاء الطائفة الأرمنية الفلسطينية في ناديهم احترامًا لذكرى ملحق «الاتحاد» باللغة الأرمنية. وكان اسمه «ميوتون». وهو «الاتحاد» بالأرمنية. وحرَّره وأشرف عليه أحبّاؤنا سركيس إيبريان وجورج كرابيديان وجورج أونجيان. وكانت لهم هيبة. فلم تجرؤ الأكثرية «الطشناقية»[٣١] على الطلب منا إخلاء النادي. إلا أن أحد الجورجَيْن أتانا وهمس في آذاننا أنهم يطالبوننا بكفّ ألسنة أولادنا عن تسمية الساحة باسم «جنينة الشوعيّة» حرصًا على النادي وعلى الساحة من يد «الحارس على أملاك الغائبين». فلمّا كبر أولادنا ونطقوا باسم «الشيوعية» نطقًا صحيحًا، وقامت البلدية بهدم

النادي وبناء مدرسة بلدية في مكانه، انتقلت «العدوى» إليها وصاروا يسمُّونها «مدرسة الشيوعيّة». فسيّجوا الساحة وطردوا المعلمين «المشاغبين». وانتقل ايبريان وكرابيديان إلى أرمينيا. وبعد عام انتقل أونجيان إلى رحمة ربِّه تعالى. وبعد عشرة أعوام كبر أولادنا وطلبوا العلم «ولو في الصين»[٣٢].

وإذا بولد، من أولاد «جنينة الشوعيّة»، يقتحم غرفتي بلا شور ولا دستور:

– «عمِّي، عمِّي! امرأتان غريبتان تسألان عنك».

– «غريبتان»؟

– «تسألان عنك».

كان كل غريب قريبًا في ذلك الزّمان. وكان الغريب مريبًا في ذلك الزّمان. فما من غريب سأل عنّا، في ذلك الزّمان، إلاّ كان قريبًا عائدًا من بين الأموات أو حاملاً رسالة من قريب حسبناه في عداد الأموات. وكان الاقتراب من أحدهما – القريب العائد أو حامل الرسالة من قريب لم يعد – مسًّا خطيراً بأمن هذه الدولة. فإذا بدرت هذه البادرة من قائد من بيننا تهدّدت علنيتنا الهشَّة فأنّبناه على هذا التفريط بمسؤوليته عن مستقبل شعب بأسره حين غَلّب مصلحة قريب عائد أو رسالة من قريب لم يعد على مسؤوليته العامة.

– «هل سمعهما أحد غيرك تسألان عني»؟

– « الطويلة النحيلة سألت عنك. وأما الصغيرة، النورية الحلوة التي تحمل صُرَّة من الورق الأحمر، فلم تفتح فمها ».

– « ولد! أحضرهما ولا تفتح فمك ».

وعاد بالطويلة النحيلة وحدها. وكان النُّحول باديًا عليها وقد أسبغت على قامتها النحيلة ثوبًا أبيض شفافًا مُضلّعًا بما يشبه سنابل القمح يكشف عن هيكل عظمي كأنه سنبلة قمح طويلة طالعة على ساقَي طائر « أبي مصص ». وطرحت هذه السنبلة ذراعين فاضا عن كُمَّيْ ثوبها الواسعين. فكأنهما جناحا فراشة.

وكانت تحمل صُرَّة حمراء.

– « فراشة »؟

– « مرحى على هذه الفراسة »!

– « فاسمك الحقيقي »؟

– « فراشة ».

– « هل شاهدوك وأنت تدخلين علينا »؟

– « إطمئن ولا تقلق، يا حضرة المسؤول عن شعب ولا شعب! محصيّة أنا وأحمل هُوية وهدية ».

ووضعت الصُّرّة الحمراء أمامي.

– « قال الولد إن النورية الصغيرة الحلوة حملتها. فلماذا لم تحضر معك »؟

فدغدغها هذا الوصف – «النورية الصغيرة الحلوة» – فأطلقت العِنان لوجهها المنقبض. فانفرج عن ابتسامة شفاعمرية.

ثم قالت:

– «ليست نورية. وكلكم نَوَر. وما لهم النَّوَر؟ هل سمعت عن نوري صَلَمَ أُذن نوري»؟

– «فلماذا لم تدخل معك»؟

– «دلَّتني على الكهف في الكرمل ودلَّتني على مكتبك. ومضت في سبيلها».

– «هل تعرفينها»؟

– «قالت إنك تعرفها».

– «من أين؟ ما اسمها؟ من تكون»؟

– «قالت: إن شئت أن تجدها وجدتها».

ثم تنهَّد وقال: مضى أربعون عامًا على ذلك اللقاء. فلا تنتظر مني أن أتذكر تفصيل ما جرى فيه من حوار بيننا.

وأنا، الآن، لا أسترجع الحقيقة بل أحفر عميقًا في جبل النسيان بحثًا عن هذه الحقيقة. وهي جوهرة مكنونة أغلى عَلَيّ من كل ما حُفِرَت عنه الأرض والعقول من جواهر. ولكنني وجدتها جوهرة عصيَّة لا تُسترجع مهما تُوغلْ في الحفر.

كان وَرَدَ في خاطري – ورود ثدي الوالدة في خاطر ولدها الذي أصبح والداً – أنها سرايا.

وكانت هذه الخاطرة قد خطرت في ذهني منذ أن بلغني الهمس عن «فراشة» وعن كهفها، في منزوى غابة كرملية، حيث كانت «فراشة» تُؤوي إليه من أَوَى إليها هربًا من أبناء آوى حتى تتدبَّر أُمورهم أو يتدبَّروها.

ولسبب، رَفَضْتُ الاعتراف به حتى بيني وبين نفسي، تملّكني الحزن حين اقترحت أُم أولادي أن تأوي إليه مع طفلتنا لبضعة أيام أو لأُسبوع – «حتى يزهقوا ويكفُّوا عنّا».

وكانوا لا يكفُّون عن حارتنا، ليل نهار، بحثًا عن نسائنا «المتسلِّلات» مع أطفالنا «المتسلِّلين». وكان نساء الحي يوقفن جارة «محصيّة» في أول الدرج[٣٣] بالمناوبة. فإذا أحست بحركة مريبة، من مثل وقوف سيّارة مريبة وقفة مريبة، صاحت بأعلى صوتها: «تخبُّوا مليح، أجاكم الريح»! فينتقل الصوت من جارة إلى جارة. فتحمل «المتسلِّلة» طفلها «المتسلِّل» أو أطفالها «المتسلِّلين» – ويكون الأصغر محمولاً والباقون متشبِّثين بأذيال ثوبها – وتخترق سياج حديقة عباس من فتحة أعدَّها الرجال سلفًا وغضَّ حارس الحديقة البهائي عنها دون أية مصارحة.

وما كانت الجارة «العين» ترفع عقيرتها بالنداء الشعبي كاملاً

– « تخبُّوا مليح، أجاكم الريح » إلا إذا لم يكن بين المغيرين « يهودي إبن عرب » .

وكانت الجارات، في حارتنا، يتناوبن على أداء هذه المهمّة. وكان يقيم، في حارتنا، عائلتان يهوديتان. فاشتركت الجارتان في هذه المهمّة. إحداهما پولندية على زوج پولندي. والأُخرى طبرانية على زوج پولندي. وكانت هذه، الأخيرة، تتقن نطق العربية مثل أهلها. وكانت من أهلها. كانت خفيفة الروح ثقيلة الوزن. فتتثاقل في مشيتها وتصيح عن عَمْدٍ « أجاكم الريخ، أجاكم الريخ » . وكانت تصرّ على جارتنا البولندية أن تنطق الرِّيح ريحًا بحاء قرشية من قوارح حنكها الساكن سكون سطح البحيرة ساعة الفجر. وكان اسمها « ماشا » واسم زوجها « ليون » . وكان لها طفلة في عمر أطفالنا كانت تنزل معها إلى « برج المراقبة » ثم تطلقها، لدى أوّل نأمة مريبة، فتصعد الدرج وهي تردِّد : « غزا، غَمَى » . وقصدها أن تقول : « عزا » و« عمى » . فتتراكض نساؤنا حاملات أطفالهن ومخترقات فتحة السياج ومختبئات وراء صخرة فاطمية أو شجرة رومية في حديقة عباس. وأبَحتُ لقلمي أن يستبيح اسمها واسم زوجها لأنّهما لم يطيقا البقاء في حارتنا المنكوبة ولم يطيقا البقاء بعيدين عنّا فتركوا البلاد كلها وهاجروا إلى كندا. وأما الطبرانية وزوجها البولندي فأحفظ ذكراهما في

سرِّي – بير ما لها قرار – وأنها كانت تصرّ، في مطلع كل غزوة، على إيواء نسائنا «المتسلِّلات» وأطفالنا «المتسلِّلين» في بيتها. فتجيبها الجارة «المتسلِّلة»: «لا، يا جارتنا. يكفينا شقاؤنا وما ذنبكِ فَتَشْقَيْن وأولادكِ معنا؟ وهل يستطيعون الانتقام من صخرة أو من شجرة في كرمل»؟

بل كانت هذه الخاطرة قد وردت في ذهنه منذ أن عادت أُم أولاده على «طريق فراشة» وهمست في أُذنه أن دليلها غير «فراشة». وكانت «فراشة» ترسل في هذه المهمّات مَنْ ينوب عنها، أحيانًا.

– «فمن كان دليلك»؟

– «امرأة شابة حلوة كأنها نورية».

وحدّثْتُهُ عن هذه «النورية» حديثًا أخذ بمجامع قلبه: أنها أقامت معها ومع طفلتهما في بلدة «رميش» أُسبوعًا من الزمن حتى اطمأنّت على سلامة الوادي من الجيش ومن «قَطّاعي الآذان». كانت تخرج مع الشمس وتعود معها «حاملة محمّلة» بالحليب وبالخضار وبالحلوى للطفلة. وكانت تَرْفُقُ بالطفلة وتحضنها وتناديها بـ«يا بِنْتُه».

– «وسمعنا أزيز رصاص. فأنزلتنا عن الدّابة وطرحتنا أرضًا وتمدّدت فوقنا».

وكان جاءَه من أبلغه بموعد العودة. فسافر إلى قرية

« حرفيش » وانتظر في « المضافة » . وكانت « المضافة » في بيت مشرف على الوادي . وكان اليوم ماطرًا شديد المطر . فأرسل معطفه الجديد مع أحد شبان القرية المؤهّل لاستقبال القافلة « المتسلِّلة » . فلما عادوا سألها عن المعطف . فأجابته : « أهديته لها » . وحدّثْتُهُ عن « النورية » وكيف تقبَّلته وقَبَّلته بعد أن أيقنت أنه « من زوجك ؟ » .

– « هل تعرفها ؟ »

– « فلسطينية ؟ »

– « بنت بلاد . كأنّما وضعوا الكرمل في يدها اليسرى والبحر في يدها اليمنى . وصلت معنا إلى القرية . هل أذهب وآتي بها ؟ »

ولم تنتظر جوابه بل أسرعت عائدة إلى حيث تجمَّعت قافلة « المتسلِّلين » العائدين ثم عادت وحدها مكسورة الخاطر أنها اختفت . وقالوا : « هذه هي عادتها في كل مرّة » .

ألقت « فراشة » بالصُّرة الحمراء على المكتب أمامه وقالت : « هدية منها إلى ابنتك » .

وفتحها . وإذا فيها ثوب لطفلته زهري اللون من « النايلون » الشفّاف اللعوب يخرخش دون أن تحرِّكه يد أو رجل . فكيف به لو ارتدته طفلته ونزلت على الدرج تحجل فرحًا بأنهم فكّوا عنها وعن والدتها ؟!

وكانوا فكّوا عنها وعن والدتها وعن بقية الجارات «المتسلّلات» وأطفالهن «المتسلّلين» بعد أن زوّدتهم «شبكة فراشة» بأوراق الإحصاء الضرورية.

– «سرايا»!

فاستوقفته «فراشة» أنها عاجزة و«شبكتها» عن أن تتدبّر أمر «النورية». فلا سجل لها ولا إحصاء منذ ولادتها. وانشغلت بتدبير عودة غيرها عن تدبير أمرها. لم تترك بلادها ولم يكن لها بيت معلوم في بلادها. ولم تسمع عن التسجيل والإحصاء والهُوية إلاّ في هذه الدولة. واستباحوا الكرمل حتى انكشفت مخابئه ولم يعد ملجأ لا للبعل ولا للخضر! لا للحَضَر ولا للنّوَر و«النّوَر» اختفوا. وشركة «تنوفا» هي التي توزّع الحليب على عتبات البيوت في المدينة. واختفت الماعز والخراف مع أهلها. وعيون الكرمل جَفَّت. ودخان الطابون فَضّاح. وانكشفت كهوف الكرمل. وشوارع الإسفلت اقتلعت الأخضر واليابس.

– «فلم يبق لها من أمل إلاّ بك. وإذا أردت اللحاق بها فلا تذهب إلى الكهف. فلن تجدها هناك. وأنت كالطير الأبلق. عيونهم عليك وعلى أمثالك فيكشفون عن ملجئها».

– «فإلى أين أذهب؟»

– «قالت: أنت تعرف وغيرك لا يعرف».

صدِّقنه، يا صبايا، إن حلف لَكُنَّ الأيمان المغلظة أنه تاه في الكرمل يبحث عنها وعن الصخرة التي تنبع من تحتها «عين السرايا».

قطع «شارع العشَّاق» وهو يتلفَّت يَمنة ويَسرة خوفًا من أن يعترضه عدو فيظن الظنون في أمره أو صديق فيسأله عن سرِّه. أخفى هديّتها إلى ابنته خوفًا من هذه المساءَلة. فلما جَنّ الليل أُصيب بالجنون وأحرق الصُّرة في «جنينة الشوعية» ورقص حول اللهيب.

فلما بلغ في «شارع العشّاق» إلى نهايته، أمام الوادي الذي يصبّ في البحر، خُيّل إليه أن أشباحًا تقف ما بينه وبين تلك الصخرة.

ومالت الشمس إلى الغروب، أمامه، في البحر. وعكست صفحة الماء ضوءَها في عينيه. وخُيِّل إليه أن الأشباح المسلَّحة تطوِّق الصخرة من كل جانب. وخُيّل إليه أنهم يجرُّون بينهم نورية صغيرة حلوة مكسورة الجناح.

فوقف أمام هوارة الوادي لا يحرِّك ساكنًا. الشمس الغاربة، من أمامه، وصفَّان من شجر الصنوبر الأبكم الأصم من ورائه وليس له، والله، إلاّ المسؤولية.

وخيِّل إليه أن الأشباح المسلَّحة تجرّ الصّبيّة المكسورة الجناح صاعدين في الوادي نحوه. وكانت عيون الأشباح تكبر وتكبر

كلما اقتربت الأشباح من موقعه.

وأمّا الصبية المكسورة الجناح فأشاحت بوجهها عنه وبعينيها عن عينيه.

ويكون هو الذي أشاح بعينيه عن عينيها.

وخُيّل إليه أن عجيبة من عجائب «مار الياس» الكرملية قد وقعت. وأن الصنوبر، الأبكم الأصم، شُفي من عاهتيه. فأصبح له حفيفٌ ظَلّ يرتفع حتى علا على هدير الموج.

وتكلّم صنوبر الكرمل وأخذ يُعْوِل مثلما تُعْوِل صخور «تل السمك» حين يخترق ثقوبَها ماء البحر المتماوج من تحتها – نواح كلب سائب على قمرٍ بدرٍ يضيء عبثًا على قرية مهجورة من أهلها. فما الحاجة إلى ضوئه؟!

وخيِّل إليه أنه يرى ابنة فرعون تردّ الطفل إلى أيدي كل الأُمهات سوى أُمه.

فلا تقرّ عين الكرمل ولا تقرّ عين البحر ولا تقرّ عين سرايا.

ولا يقرّ ولا يستقر قصر حُبست فيه «سرايا بنت الغول».

صدِّقنه، يا صبايا، إن حلف الأَيمان المغلظة أنه تاه في الكرمل يبحث عنها وعن الصخرة التي تنبع من تحتها «عين السرايا».

ولكنه ما حلف ولن يحلف.

– ها أنت تتردَّد، كعادتك، في الخطوة الأخيرة.

– كانت المصائب تسبق الاهتداء إلى وسائل تلافيها. ألم

يَحِنْ أوان قلب هذه المعادلة رأسًا على عقب؟

– وبعدين؟ ألم تنته هذه «الخُرَّافيّة»؟

– هل جاءَت النهاية؟ ما أشبه النهاية بالبداية حتى كأنها بداية شيء آخر. فما هو؟

تعوَّدنا على لَجَب الحروب. فأصبحنا نُمَيِّزُ بين غمغمة حرب وغمغمة حرب أُخرى. فهل أدمنت آذاننا على التقاط تلك الغمغمة – من حرب إلى حرب أُخرى، من عام إلى «عام آخر»[٣٤]، فأمست صماء عاجزة عن التقاط النغم الآخر، الذبذبة الصوتية الأُخرى؟

ويُحرز المتخصِّصون في «عِلْم الأحياء» منجزات مثيرة للأمل في التقاط الذبذبات الصوتية الأُخرى التي يطلقها سمك الدلفين – زميل الإنسان منذ أن «قال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة. وكان كذلك»[٣٥]. فهل يتسنَّى لهم الوقت لاستعادة تلك الزمالة القديمة أو ينقرض الدلفين؟

أجلس، وصاحبي، في صومعة النهاية فلا يكفّ عن تشبيهها بمنزل الأجِنّة أو بكِمامة النُّوارة أو بشرنقة القزّ أو ببيضة النعام – صومعة البداية.

ولا يتخيَّل هذه الصومعة إلاّ على شكل مِحْضَن[٣٦] ذي قُبّة من زجاج أشبه بهالة القمر أو بهالة قدِّيس أو بكمامة

رجل فضاء أو بسقف مستعمرة خضراء شيَّدها سكان الكوكب الأخضر فوق المريخ أو فوق عطارد أو فوق الزُّهرة أو فوق كوكب بعيد في مَجَرّة أُخرى – أندروميدا.

ويفتحون بابًا صغيرًا من أبوابها التي لا تُعدّ ولا تُحصى. ويطلقون إلى الفضاء الجديد قادمين جدداً من الفضاء الأخضر. ومنهم من يرضخ لأحكام البيئة الغريبة ويتعوَّد عليها فيعيش. ومنهم مَنْ لا يرضخ لها فلا يعيش. ومنهم مَنْ يعود أدراجه إلى الصومعة منتظرًا أن يردُّوه إلى أُمه كي تقرّ عينها وتقرّ عينه ولا تحزن ولا يحزن.

ويتخيَّل هذه الصومعة، أحيانًا، سفينة فضاء تائهة في مجاهل الكون. وفي السفينة قسم مخصّص للمسافرين من سكان الكوكب الأخضر، أشبه بصومعة ذات قبّة من زجاج نجلس تحتها متسائلين: هل هي رحلة البداية أم هي رحلة النهاية؟ رحلة الانطلاق أم رحلة العودة؟

إلى أين؟

ويجلس في صومعة النهاية منتظرًا أن يردُّوه إلى سرايا. قال: لولا أن هذا هو اسمها، الذي عرفناها به، ولولا جهلي السابق بآلهة أجدادها المصريين الأقدمين، لسمَّيتها باسم «معات».

ويجلس تحت القبَّة الزجاجية منتظرًا ولا شغل له سوى التساؤل: لقد أُعطيتُ سرايا منذ البداية، فكيف حبستُها

في قصر فوق غيوم الإهمال حتى دخولي إلى صومعة النهاية؟ وجدتُ مهداً عائماً على وجه الماء أُلقيت فيه طفلة تصيح صيحة الاستهلال. هَشَّتْ في وجهي ونطقت، في المهد العائم، «يابا»! والدم «رشق». فكيف اخترتُ أن أكون واحداً من الملايين الذين لم يُكتب لهم أن يُعطوها معلِّلاً النّفس بأنني سابح مع القلّة الشجاعة في وجه التيَّار؟

هل نقبل عذرًا لشجرة إجّاص أثمرت باذنجانًا أنها توفر للفقراء «لحم الفقراء»[٣٧]؟!

ولو أهمل غيري سراياه، مثلما أهملتُ سراياي، هل بقي على هذا الكوكب سوى الذئاب والضباع والمعيز والشرطة وحمّالي الأشرطة وآكلي لحوم إخوتهم وأخواتهم، حتى ينتهوا من أكل لحومهم، والمختبئين في مغائر الماضي خوفًا من خوف كُهّانهم من أن يعجزوا عن التنفُّس في عالم خلو من الجراثيم؟

مستحيل؟

إيش المستحيل؟

المستحيل أن تُحصوا عدد الأنبياء والمرسلين والعلماء والشُّعراء والأُدباء والفلاسفة والموسيقيين والرسامين والنحّاتين والرّاقصين والمسرحيين والسينمائيين والحالمين وكل من أُعْطي سراياه، فما أهملها وما حبسها بل أعتقها وما بُدِّل عنها تبديلاً!

ويفتح صاحبي باب صومعتنا الأخيرة. ويضع يده في يدي مصافحًا مصافحة الوداع. ويقول لي: امض، أنت، على بركة الله. أمّا أنا فعائد إلى «المعلم كَعْوَش»[٣٨] لعلّي أجد في دكانه درَّاجة أو «طُزطُزًا» أستأجره وأُسافر عليه إلى حيفا ثم أصعد به إلى الكرمل وأبدأ حياتي مع سرايا «من أوّل وجديد»!

فلم أُبلغه بأن «المعلم كَعْوَش» ودكّانه أمست «عظامهما مكاحل». بل تركته يمضي في سبيله وقد أيقنتُ أنْ لا سبيل أمامه سوى هذا السبيل.

فإن عاد إلى صومعتنا ووجدني، باقيًا تحت القبَّة الزجاجية، أنتظر الانطلاق، فإنني أعدكم بأن أحكي لكم بقيّة هذه الخُرَّافيّة.

ولو كان لي بيت قريب لجئتكم من مؤونته بطبق من زبيب. أو من «تفّاح الجِنّ».

فإلى اللقاء في الخُرَّافيّة القادمة.

قولوا: «إن شا الله»[٣٩]!

الفصل الأول

(١) هكذا كان الأقدمون يسمُّون مقدِّمات مؤلفاتهم.

(٢) أبو الطيِّب المتنبي.

(٣) الحرب السادسة هي «حرب لبنان» – العدوان على لبنان – ووقعت في العام ١٩٨٢. والخامسة هي «حرب الليطاني» ووقعت في العام ١٩٧٩. والرابعة هي «حرب يوم الغفران» في العام ١٩٧٣. والثالثة هي «العدوان الحزيراني» في العام ١٩٦٧. والثانية هي «العدوان الثلاثي» على مصر في العام ١٩٥٦. وأما الحرب الأولى فهي الكارثة الأولى في العام ١٩٤٨. هذا ولم تكن «حرب الخليج» قد وقعت حين الانتهاء من تأليف «الخرَّافية».

(٤) الإشارة إلى «مجزرة السمُّوع» – قرية فلسطينية، أردنية آنذاك، واقعة في جبال الخليل – ارتكبتها «كتيبة خاصة» من كتائب الجيش الإسرائيلي (الكتيبة ١٠١) بقيادة الجنرال أريئيل شارون في ١٣/١١/١٩٦٣ وأنكرها رئيس الوزراء ووزير الدفاع، آنذاك، دافيد بن غوريون. (المؤلف).

(٥) مفردها «وبرة»: دويبة أصغر من السنّور وأكبر من الجرذ. لونها أغبر ولا ذنب لها وتقيم في البيوت. وهي «الأرنب الرومي» – coney – والخَمْش ولد الوبر الذكر. والجمع خمشان. والصنّ: بول الوبر. وحسبت أن الكلمة العامية – «صنّة» – جاءَت منه حتى جاءَني أُستاذ لغة عربية وأقنعني بأنها جاءَت من الماء «الآسن». (المؤلف).

(٦) أُسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ (١٠٩٥–١١٨٨م) ولد في قلعة شيزر على بعد ١٥ ميلاً إلى شمال حماة وتوفي في دمشق. صادق صلاح الدين وآخى فرسان الإفرنج وقاتل «الإسماعيلية وسائر العرب». (فيليب حتي).

(٧) «الروشن» – شرفة من خشب يخرج من حائط الدار إلى الطريق (فوقه) دون أن يكون مسنودًا من تحته بأي سند أو عمود.

(٨) من «كتاب الاعتبار» لأُسامة بن منقذ.

(٩) من «بلادنا فلسطين» لمصطفى مراد الدباغ.

(١٠) متبطِّلون يروحون ويجيئون دون من عمل أو من رزق ثابت لهم.

(١١) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي البلنسي. ولد في بلنسة سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) وكانت وفاته سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م) في الإسكندرية حيث أقام محدثًا. اشتهر بكتابه الذي عرف باسم «رحلة ابن جبير» وهو ثمرة ثلاث رحلات إلى المشرق أهمّها رحلته الأُولى بين العامين ٥٧٨هـ (١١٨٢م) و ٥٨١هـ (١١٨٥م). وزار عكا في أثناء هذه الرحلة وعرَّج على الزيب في العام ٥٨٠ هـ (١١٨٤م).

(١٢) بحيرة طبريا.

(١٣) نسبة إلى قرية الرامة في أعالي الجليل المشهورة، حتى يومنا هذا، بنقاوة زيتها. ولا إساءة لا لقرية المغار ولا لعيلبون ولا لغيرهما من مواطن الزيتون. (المؤلف).

(١٤) إشارة إلى معجزة إشباع «نحو خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد» بسمكتين وخمسة أرغفة. وبعد أن «أكل الجميع وشبعوا رفعوا ما فضل من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة». (إنجيل متى، الإصحاح الرابع عشر).

(١٥) الإشارة إلى بيت المتنبي: «ورد إذا ورد البحيرة شاربًا / ورد الفرات زئيره والنيلا».

(١٦) بدأنا في كتابة هذا الفصل في نهاية العام ١٩٨٣. إلا أننا أعدنا صياغته عدّة مرات ولم نجزه للنشر إلا في ٢٢/٩/١٩٩٠. (المؤلف).

(١٧) الإشارة إلى بيت المتنبي: «نامت نواطير مصر عن ثعالبها / وقد بَشِمْنَ وما تفنى العناقيدُ».

(١٨) العام ١٩٨٣.

(١٩) العام ١٩٦٧. وتحدثتُ عن «الأشباح الهائمة» في روايتي القصيرة «أُم الروبابيكيا» وهي الرواية الثالثة في «سداسيَّة الأيام الستة». ظهرت، لأول مرة، في العام ١٩٦٨. (المؤلف).

(٢٠) هولة أو غولة قيل أنها تظهر للتائه في الصحراء كأنها والدته أو زوجه ولا تفك عنه حتى تفترسه.

(٢١) «الشيخ والبحر».

(٢٢) «سفر التكوين»، الإصحاح الأول.

(٢٣) أي السلاقية.

(٢٤) الإشارة إلى أبي موسى الأشعري الذي ناب عن علي بن أبي

طالب في مفاوضة عمرو بن العاص بالنيابة عن معاوية بن أبي سفيان فأغري أبو موسى الأشعري بخلع صاحبه وبخلع معاوية معًا.

(٢٥) وادي النسناس.

(٢٦) شفاعمرو.

(٢٧) حيفا.

(٢٨) من «الطيرة» و«التطيُّر» وهو التشاؤم من صوت أو رقم أو حركة. وكان العرب «يتطيَّرون» من وجهة معيَّنة تتَّجه فيها طيور في طيرانها.

(٢٩) من «دُوار». (المؤلف).

(٣٠) أو «مون فور» – Mont Fort – ترتفع عن سطح البحر ٩٥٠ قدمًا. والمعتقد أن «فرسان المعبد» – «الإسبتالية» هم الذين بنوها في أثناء الحروب الصليبية (بداية القرن الثاني عشر الميلادي) ثم قام فرسان التيتون الجرمان بتوسيعها وزيادة تحصينها في العام ١٢٢٨. وفي العام ١٢٧١ استولى عليها الظاهر بيبرس وهدمها. («بلادنا فلسطين» لمصطفى مراد الدباغ).

(٣١) ولد ما بين العامين ٥٨٠ و ٥٧٢ ق.م. ووضع حدًا لحياته بعد أن تجاوز الثمانين بأن أمات نفسه جوعًا.

(٣٢) تحت قمة الكرمل الجنوبية، وفي منكبه الشمالي المواجه لعكا ولرأس الناقورة. وقيل إنها المغارة التي أقام فيها النبي الياس. وهي مزار لليهود والمسيحيين والمسلمين حتى يومنا هذا. (المؤلف).

(٣٣) ١٩٤٨.

(٣٤) في تركيا.

(٣٥) مزرعة الرُّمان.

(٣٦) عكا.

(٣٧) يسمّى الآن «تشيك پوست».

الفصل الثاني

(١) عن «عالم كما أراه» لألبرت أينشتاين، الترجمة الإنجليزية الصادرة في العام ١٩٣٥.

(٢) ماذا بعد؟!

(٣) من بيت للمعرّي: «خفّف الوطء ما أظن أديم الأرض إلاّ من هذه الأجساد».

(٤) رسم أُفقي للعصا ومقبضها في الطرف الأيسر من الرسم.

(٥) الحد الشمالي الأقصى من فلسطين ومن إسرائيل الآن والمدخل الرسمي إلى لبنان. ويتألّف من ثلاثة صخور شاهقة داخلٌ رأسُها في البحر وتخترقها، من تحتها، ثقوب عميقة متّصلة بالبحر، فيدخلها ماؤه وموجه مرتطمًا بأطرافها فيُطلق هديرًا مكتومًا يثير الهيبة. ويبعد هذا الموقع عن عكا ٢١ كم وعن صور ٢٤ كم. وذكر الإدريسي (المتوفّى في العام ٥٦٠هـ – ١١٦٥م) أن الناقورة كلمة سريانية بمعنى «حفر» و«ثقب» وأنها عرفت باسم «النواقير» و«هي ثلاثة جبال بيض شاهقة مطلّة على ضفة البحر». (مصطفى مراد الدباغ في «بلادنا فلسطين»).

(٦) أي «مسكونة بالأشباح وبالأرواح».

(٧) الإشارة إلى امرأة لوط التي نظرت إلى ورائها فتحوّلت إلى عمود ملح.

(٨) وسمّيناه أحيانًا باسم «نهر عكا» حيث يصبّ في جنوبها الشرقي على بعد كيلومترين منها. وينبع من تلّ الكردانا وينتهي في البحر بعد مسيرة ٨ كيلومترات. وعرفه الكنعانيون باسم «نهر بعل» بمعنى «رب» أو «سيد». ثم حَرّفه اليونان إلى اسم «بيلوس – Belus». وكان يزود الكنعانيين (الفينيقيين) بأجود أصداف «موركس – Murex» التي كانوا يستخرجون منها صباغ الأُرجوان الملوكي. ومن رماله استنبطوا صناعة الزجاج. («بلادنا فلسطين» لمصطفى مراد الدباغ).

(٩) قشر السمسم.

(١٠) لتمييزها عن «مريم الحيفاوية» وهي جدّته لأبيه التي انتقلت معهم إلى حيفا. (المؤلف).

(١١) من رواية روتها لي أُختي الكبيرة (من مواليد العام ١٩١٠) المقيمة في بريطانيا منذ نهاية العام ١٩٨٢ في كنف ابنة لها متزوجة هناك. وقد زارتني في العام ١٩٨٦ فسألتها عن «رحلة الملح» فحكت لي حكايات أورقت هذه الحكاية الخيالية. (المؤلف).

(١٢) شقّ على المريض، في لهجتنا الفلسطينية: زاره أو عاده. وفاجأني دليل نوبي في معبد مصري قديم على أعالي النيل بقوله إن المرأة العاقر من تلك النواحي «تشقّ» على آلهة ذلك المعبد لعلها تحمل. وهي عادة متوارثة منذ آلاف السنين. (المؤلف).

(١٣) لابن طفيل في «رسالة حي بن يقظان».

(١٤) غجرية.

(١٥) ماء الورد.

(١٦) من أُغنية لفيروز.

(١٧) من «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري.

(١٨) موقع على جبل الكرمل، في طرفه الشرقي، قيل إن النبي الياس أحرق فيه كهنة الإله «البعل» – وهو الكرمل نفسه.

(١٩) كتاب الأمثال الهندي القديم «كليلة ودمنة». وضعه بيدبا الفيلسوف الهندي ونقله عن ترجمته الفهلوية (الفارسية) عبد الله بن المقفّع. واسمه الفارسي «روزبه». وهو ابن لرجل كان يجمع الخراج للحجاج بن يوسف. وعاش ابن المقفّع في زمن خلافة المنصور (٧٥٤ – ٧٧٥م). وانقلب المنصور عليه وأمر بتعذيبه وبقتله. (عن «تاريخ الشعوب الإسلامية» لكارل بروكلمان).

(٢٠) تل يقع على شاطئ البحر تحت قرن الكرمل إلى الغرب من حيفا وبينهما «راس الكروم». ويطمر التل أطلال بلدة «سيكامينوس» أو «سيكامينوبوليس» القديمة والمندثرة. واسمها مأخوذ من اسم «سيكامور» وهو شجر الجمّيز ولأمر ما يسمى، أيضًا، باسم «تين فرعون». وظلت هذه البلدة قرينًا لحيفا ومنافسًا لها حتى القرون الوسيطة. وذكرها التلمود باسم «شكمونة». وهو اسم هذه المنطقة من حيفا الآن. ويبدو أن اسم – «تل السمك» – الذي توارثناه مرتبط، هو أيضًا، بكلمة «سيكامور». وتشاء العناية أن يغزر السمك في البحر أمام التل فينغرز اسمه العربي الفلسطيني في الذاكرة المشتركة ويلجأ إليه هواة صيد السمك، من جيل إلى جيل حتى يومنا هذا. وكنت واحدًا منهم حتى انتقلت إلى غُرض البحر. (المؤلف).

(٢١) الآن ميناء «كيشون».

(٢٢) لابن الرومي في مِيمِيَّته الشهيرة التي وصف فيها اكتساح الزِّنج مدينة «البصرة».

(٢٣) كلمة تركية تعني «ملح» – ملح الطعام لا أكثر ولا أقل. وكان الجابي التركي في بلادنا، في أثناء الحرب العالمية الأُولى، يداهم بيوتنا مفتِّشًا عمّا احتفظنا فيها من «مونة» في الأكياس والعُدُل من القمح والشّعير والسمسم والفول والحمص والملح، ليجبي الضريبة عنها، وهو أخذ العُشْر من الغلال، وقد يكون الرُّبع. ويبدو أن أقل الضريبة هو على عدول الملح. فكان جدودنا يدَّعون أن عدولهم كلها مملوءة بالملح. «إيش فيه؟». «طُزْ». فينتهر كاتبه المرافق له ويقول: «أُكتب: طُزْ»! فأصبحت تعبيرًا عن الاستخفاف مثل كلمة «بوز» لدى أولاد عمّنا اليهود. (المؤلف).

(٢٤) ذكر المسعودي، في «مروج الذهب»، أن طائفة من العرب في الجاهلية زعمت أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان. فإذا مات أو قُتل خرج من جسمه وحَلّق في فناء أهله يراقبهم. ويسمونه «الهامة». ولا تزال «الهامة» محوّمة في فنائهم لتعلم ما يكون بعده فتخبره به. أمّا الإسلام فأنكر هذا الزعم وجاء في الحديث الشريف: «لا هام ولا صَفَر».

(٢٥) زملاء المؤلف في صيد السمك.

(٢٦) من حكاية «حدائق الحور» في «رسالة الغفران» للمعري.

(٢٧) «إيش صار لأيوب يوم بلواه / سبع سنين وبنت عمه تخدمه».

(٢٨) كان الأُستاذ عارف حجازي معلمنا للغة العربية. وأخوه هو الشهيد فؤاد حجازي الذى أعدمه الإنجليز في ذلك الوقت. (المؤلف).

(٢٩) أي استئجارًا لهم وحدهم.

(٣٠) ٢٢ كيلومترًا.

(٣١) عن الاستهلال الذي استهل به ابن الأثير، في تاريخه، روايته عمّا شاهده من غزو المغول لبلادنا في العام ٦١٧هـ (١٢٢٠م). وفي العام ١٢٥٨م استولى هولاكو على بغداد. وفي العام ١٢٦٠م وقعت معركة عين جالوت التي هزم المماليك فيها المغول. ويعتمد ابن الأثير على الآية: «يا ليتني متُّ قبل هذا وكنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا». (من سورة مريم).

(٣٢) نقطة عبور بين القدس الجديدة والقدس القديمة. وكانت تقع

وراء «جمعية الشبان المسيحية» في البلدة القديمة.

(٣٣) نشرت، للمرة الأُولى، في مجلة «الجديد» – حيفا، في آذار ١٩٦٣.

(٣٤) قرية عربية كانت قائمة على سفح الكرمل الجنوبي في الطريق من حيفا إلى يافا. وتبعد عن حيفا حوالي ١٥ كيلومترًا. ودمرتها الطائرات الإسرائيلية، هي وإجزم وجبع، في ٢١/٧/١٩٤٨. وأُقيم على أنقاضها مستوطنة يهودية باسم «عين أياله» أي «عين غزال». ودمّروها بعد أن انسحب منها أغلب أهلها. وأسروا الباقين وقتلوا منهم ما يزيد على مئة. وأزالوا جبع وعين غزال وإجزم من الوجود. (مصطفى مراد الدباغ في «بلادنا فلسطين»).

(٣٥) من شعر هدبة بن خشرم أورده البحتري في حماسته.

(٣٦) فؤاد نصار.

(٣٧) عبد الكريم الكرمي.

(٣٨) ١٩٩٠.

(٣٩) من شعر حفظناه منذ ذلك الزمان ولا أذكر قائله:

«تنبَّا لها من ذاكرة
سكنت ديار الآخرة
كانت تدور على النُّهى
دارت عليها الدائرة».

(٤٠) كلمة صاغها المؤلف على وزن «عمران». فقال: «دمران».

(٤١) عن تدمير عين غزال وجارتيها، إجزم وجبع، جاء عن عبد الله التل: «أنها واحدة من المآسي التي وقعت في فلسطين.. وكان الجيش العراقي متصلاً بهذه القرى.. ولكنه لم يساعدها إلا بالقليل من الذخيرة.. حتى كان اليوم الأسود الذي ذهبت فيه تلك القرى ضحية بريئة تحت سمع الجيش العراقي وبصره. وكان ذلك بعد فرض الهدنة الثانية.. وفي ٢١/٧/١٩٤٨ بدأت الطائرات اليهودية تقصف هذه القرى الآمنة التي اطمأنت إلى الهدنة. واستمر القصف عدة أيام زحف بعدها الجيش اليهودي واحتل هذه القرى بعد أن انسحب منها أغلب أهلها. وأُسر الباقون وقُتل منهم ما يزيد على مئة. وأزالوا جبع وعين غزال وإجزم من الوجود». (مصطفى مراد الدباغ في «بلادنا فلسطين»).

(٤٢) تعبير شائع في الولايات المتحدة عن إحكام إصابة الهدف – «بول» – ومعناها «ثور». ثم انتقل إلى اللغة العبرية. وهذا التعبير، الأمريكي الأصل، جاء عن «رياضة» وحشية أمريكية. كانوا يجمعون الثيران الأمريكية الوحشية في رقعة واسعة من الأرض. ويحيط بها الصيادون من كل جانب يطلقون الرصاص على الثيران المفزوعة ويتبارون بعدد ما يرديه الواحد منهم من ثيران – «بول» – قتيلاً. (المؤلف).

(٤٣) جراب من القماش الخام، ذو حمالة تُعلّق على الكتف، كانت نساء البيت – الجدّة أو الوالدة أو الأُخت الكبيرة – يخيّطنه ممّا تيسر في البيت من خِرَق. وكنّا نضع فيه كتبنا ودفاترنا وأقلامنا و«العصرونة». وهي نصف رغيف ملتوت بالزيت والزعتر أو محشو بعجّة بيض أو باللبنة مع الزيت. فإذا وقعت الواقعة ما بيننا تخفّفنا منه وألقيناه على قارعة الطريق أو حيثما وقعت الواقعة. وننساه هناك، أحيانًا. فنعود إلى حيث ألقيناه فنجده سالمًا. (المؤلف).

(٤٤) يحتفل به في ٢٠ تموز من كل عام.

(٤٥) قصب السكر.

(٤٦) عن حواء في «سفر التكوين».

(٤٧) من الرواية الفلسفية الصوفية «حي بن يقظان» لابن طُفيل.

(٤٨) آخر فقرة في «رواية الغفران». وهي الجزء الثاني من «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري.

(٤٩) البدو.

(٥٠) الذي لُدغ بسمّ الأفعى.

(٥١) طائر خرافي.

الفصل الثالث

(١) كتب هذا الكلام، أول ما كتب، يوم ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠– في أواسط الشهر الثاني على «أزمة الخليج» التي ظهرت يوم ٢ آب (أغسطس). حين قام الجيش العراقي باجتياح دولة الكويت دون سابق إنذار. (المؤلف).

(٢) قرآن كريم. سورة الدخان، الآية ٤١.

(٣) قرآن كريم. سورة الإسراء. من الآية ٩٧.

(٤) في «أيلول الأسود» ١٩٧٠.

(٥) صدرت في مجلة «الجديد» الحيفاوية في آذار ١٩٥٤.

(٦) في نيسان ١٩٤٨.

(٧) كتبت النسخة الأُولى لهذا الفصل في آب ١٩٨٩ في الولايات المتحدة الأمريكية. (المؤلف).

(٨) رواية «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» التي ظهرت، لأول مرة، في صيف العام ١٩٧٤.

(٩) رؤيا يوحنا اللاهوتي – الإصحاح الرابع (٦و٧ و٨).

(١٠) أُمية بن أبي الصلت الثقفي: شاعر جاهلي «نظر في كتب الأوائل (التوراة والإنجيل) وحَرّم الخمر وتشكّك في الأوثان. رأى ما عليه قومه العرب كافة من الجهالة والشرور فتوقّع أن يبعث الله رسولاً يدعو إلى الإصلاح. فطمع أن يكون هو النبي المنتظر. فلما بعث الله رسوله محمدًا بالهدى ودين الحقّ حقد عليه وحسده حتى حمله ذلك على الجحود. مات على غير دين حوالي سنة ٥هـ(٦٢٦م)». (شرح حسن السندوبي على «البيان والتبيين» للجاحظ).

(١١) أي شفاعمرو. وقد درجت العادة، في زماننا، أن نسمي بالعاصمة اسم القرية التي جاءَ منها آباؤنا وأجدادنا. (المؤلف).

(١٢) ولدها الأصغر «نعيم».

(١٣) نعيم الاشتراكية.

(١٤) كانت صورة دوريان چْري، في رواية أُوسكار وايلد (١٨٥٤ – ١٩٠٠) – «صورة دوريان چْري» – هي التي تهرم وتشيخ. وأما دوريان چْري فحافظ على شبابه. وأما شمشوم الجبار فلم يقدر عدوّ على هزمه ما دام شعر رأسه غير مقصوص. وأما البطل الإغريقي، أخيل، فكان هذا هو شأنه ما دام كعب رجله ملامسًا الأرض.

(١٥) ١٩٨٩.

(١٦) شعر – ترجمة – الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي. ظهرت هذه الترجمة في العشرينيات من هذا القرن في كتاب أنيق رتب بحيث جاء النص الفارسي في صفحة مجاورة. وظل موجودًا في مكتبتي وضاع حين ضاعت فلسطين. (المؤلف).

(١٧) ثوب من «الروزا» أو غيرها من القماش الدمشقي يرتديه

الرجل. ويلبس فوقه سترة (جاكيت) سوداء، في العادة، إمعانًا في الاحتشام. ولم أجد لها أصلاً أو ذكرًا في القاموس. (المؤلف).

(١٨) Iraqi Petrolium Company – I.P.C. – فكنّا نلفظها: «الآي بي سي». ولفظتها خالتي: «الأبسية». (المؤلف).

(١٩) حلوى من السكر الملوّن والمحروق يخرج من النار خيوطًا خيوطًا تتراكم في ما يشبه الغيوم الصيفية. وما كان يسمح لنا بشرائه إلا في الأعياد. (المؤلف).

(٢٠) الحَبّ هو الوعاء الضخم. والكرامة هي غطاؤه. (عن «القاموس المحيط» للفيروز آبادي).

(٢١) سفر التكوين، الإصحاح السادس.

(٢٢) إشارة أُخرى إلى أزمة الخليج التي ظهرت في ٢ آب ١٩٩٠ وأُسمع فيها التهديد بالالتجاء إلى الغازات السامة.

الفصل الرابع

(١) بمعنى الولادة.

(٢) القاعد: التي بلغت سن العقم.

(٣) أكبر المعمَّرين سنًّا في «سفر التكوين». وعاش ٩٦٩ سنة.

(٤) نهر يصب في البحر جنوب عكا وكان السمك البوري يكثر في مصبّه.

(٥) هكذا سمَّينا الدرّاجة ذات المُوتور. فأخذها عنّا أبناء عمومتنا وسمّوها، تأورُبًا، باسم «تزتز» بنعومة وطراوة مثيرة للشهية. (المؤلف).

(٦) شاعر فلسطيني مقيم في تونس (موقّتًا).

(٧) إصدار جامعة هارڤارد – كيمبردج، ماساتشوستس – بترجمة إنچليزية أنجزها البروفيسور پول شوري حين كان محاضرًا عن الإغريقية في جامعة شيكاغو. (المؤلف).

(٨) علامة وضعتها هنا، وفي أماكن أُخرى، دلالة على فقرة رأيت حذفها ولا تسيء إلى السياق. (المؤلف).

(٩) مؤلف الإلياذة.

(١٠) لاحظ البروفيسور پول شوري، الذي أخذت عنه الترجمة الإنچليزية لحكمة «كهف أفلاطون»، أن النص الإغريقي الحرفي هو «بحكم الطبيعة». وأضاف أن أفلاطون «يوحي

بأن معنى الكلمة الإغريقية – الطبيعة – هو الحقيقة والصدق». وذكرتني هذه الملاحظة بكلمة «معات» المصرية القديمة التي جعلها أمين حوتيب، أخناتون، الهدف الأسمى للحياة السعيدة. وهي التناغم مع تناسق الطبيعة ووحدانيتها. فهل كلمة «معاذ» العربية استمرار متقدم لكلمة «معات» المصرية القديمة ومعناها؟ (المؤلف).

(١١) أديب وباحث شهير مجيد ترجم إلى العبرية روايتيّ – «المتشائل» و«اخطيّة» [وهذه الرواية لاحقًا] فادّعى العالمون ببواطن اللُّغتين التوأم أنه أغنى اللغة العبرية. (المؤلف).

(١٢) بليّة على أُخرى. («القاموس المحيط» للفيروز آبادي).

(١٣) فلاديمير إيليتش أوليانوف «لينين» (٢٢ نيسان ١٨٧٠ – ٢١ كانون الثاني ١٩٢٤) مؤسس حزب «البلاشفة» في روسيا القيصرية وقائده في «ثورة أُكتوبر الاشتراكية الكبرى» (٦–٧ نوفمبر ١٩١٧ – بالتوقيت العصري).

(١٤) من مؤلف «لينين» – «ما العمل؟». ظهر، لأوّل مرّة، في العام ١٩٠٢ باللغة الروسية وطُبع في شتوتجارت، ألمانيا. وظهرت حكاية «المستنقع» في نهاية الفصل الأول منه. (المؤلف).

(١٥) الروائي الإسرائيلي المعروف سامي ميخائيل. وهو من أصل عراقي.

(١٦) تردّدت في مسرحية «لكع بن لكع» التي صدرت في العام ١٩٨٠.

(١٧) لأبي الطيّب المتنبي.

(١٨) Girls English High School – «مدرسة البنات الإنجليزية العالية» في زمن الانتداب وتقع في نهاية الطرف الشمالي من شارع «شبتاي ليفي» في زاوية التقائه مع شارع الجبل. وقد تحوّلت الآن إلى متحف بلدي.

(١٩) سفر التكوين – الإصحاح الأول، الفقرة الأُولى.

(٢٠) المصدر السابق.

(٢١) ليس المهمّ، الآن، الاسم. إنّما المهمّ، الآن، التجربة. (المؤلف).

(٢٢) آخر نسور لقمان الحكيم المعمّرة.

(٢٣) «الشريط الحدودي»، هو المنطقة التي تسيطر إسرائيل عليها

من جنوب لبنان. هذا ما قدّرنا الله على تعيينه، جغرافيًا، بعد تردُّد طويل مبعثه الخوف من مغبّة استرسال غير محمود العواقب أو من مغبّة إغلاق باب ما زال مفتوحًا على مصراعَيه. (المؤلف).

(٢٤) نسبة إلى الشاعر البحتري – أبي عبادة الوليد بن عبيد الله (٨٢٢ م – ٨٩٨ م). عاش غنيًّا ومات عن عقار واسع. وعلمونا أنه «شاعر الحَضَر» وأحسن من وصف حياة البذخ في ذلك الزمان. ومنها تعاطي التفاح. وعن ذلك قال ابن الأثير، في «المثل السائر»: «وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليها غلائل مُصبغات وقد تحلّين بأصناف الحلي». ولم أهتد إلى أي بيت من أبيات شعره في وصف التفاح يجيز لي نسبة تفاح الجنة إليه. ولكنني ما حللت وما زلت وعذري معي. (المؤلف).

(٢٥) نسبة إلى أبي نواس الشاعر الماجن الشهير بمجونه – الحسن بن هانئ (٧٦٠ م – ٨١٦ م) وذلك على قوله:

«فقل لمن يَدّعي في العلم فلسفة
حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء».

ولد في خوزستان من بلاد فارس لأُم فارسية. واشتهر بسكره وبمجونه واستخفّ بالحياة العربية آنذاك. فهو القائل:

«عاج الشقي على رسم يسائله
وعُجْتُ أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد
لا درّ درُّك قُلْ لي مَنْ بنو أسد
وَمَن تميم وَمَن قيس ولِفْهما
ليس الأعاريب عند الله من أحد».

وهو القائل: «لا تأخذ من الأعراب لهوًا ولا عيشًا فعيشهم جديبٌ». (المؤلف).

(٢٦) إسحق شمير الذي كان رئيسًا على حكومة إسرائيل حين سجّلنا هذه الصلاة. (المؤلف).

(٢٧) وادي كركرة على الحدود الشمالية من فلسطين. تتجمّع مياهه بالقرب من قرية «تربيخا» الزائلة ثم تجري من الشرق إلى الغرب فتصبّ في البحر على بعد كيلومترين اثنين من رأس الناقورة. («بلادنا فلسطين» لمصطفى مراد الدباغ).

(٢٨) قرية لبنانية على الحدود الجنوبية من لبنان.

(٢٩) قرية فلسطينية (في داخل إسرائيل الآن) على الحدود الشمالية.

(٣٠) من سورة هود.

(٣١) حزب اليمين لدى الشعب الأرمني.

(٣٢) من الحديث الشريف: «اطلبوا العلم ولو في الصين».

(٣٣) درج اليازجي الذي يصعد من شارع عباس إلى الكرمل في محاذاة سور دير الراهبات الغربي.

(٣٤) من أُغنية لسهام شماس عن مرور الأعوام على اللاجئين الفلسطينيين وهم بعيدون عن بلادهم.

(٣٥) سفر التكوين – الإصحاح الأول.

(٣٦) Incubator.

(٣٧) الباذنجان.

(٣٨) لقب صاحب دكان لتأجير الدرّاجات الهوائية كان قائمًا في أعلى الشارع الرئيسي في الناصرة حتى مستهلّ السبعينيات. وكان يؤجّر الدراجات الهوائية لأولادنا في ذلك الزمان لمدة ساعة أو نصف ساعة بأجر معلوم. (المؤلف).

(٣٩) انتهينا من كتابة هذه «الخُرَّافيّة» – في نصّها النهائي (الحالي) – صباح يوم الإثنين ٢٤/٩/١٩٩٠. (المؤلف).

اميل حبيبي

جدل الخصوصيّة والإبداع

يستحضر اسم إميل حبيبي على الفور الأديب الأبرز من بين الآباء المؤسّسين للرواية الفلسطينية المعاصرة، لا بمعنى الأسبقيّة الزمنيّة بل بالمعنى الأعمق للتأسيس، الذي يُحيل إلى فنّية الرواية ذاتها، شكليًا وروحيًا. وذلك فضلاً عن كونه يمثّل تيارًا أساسيًا في الرواية العربية المعاصرة، لحمته وسُداه تطعيم الشكل الروائي الحديث بعناصر سرديّة وغير سرديّة مجتلبة من التراث العربي والحكايات الشعبية وأشكال السّرد الشفوي.

منذ عمله الإبداعي الأول «سداسيّة الأيام الستة»، الذي ظهر بعد عدوان حزيران / يونيو ١٩٦٧، وحتى «خُرّافية سرايا بنت الغول»، التي ظهرت في ١٩٩١، وما بينهما من أعمال، استطاع إميل حبيبي أن يشيد بناءَه الروائي على موادّ متنوّعة متغايرة وأن يؤالف نصّه في دوائر متقاطعة وأن يجعل الكتابة الأدبية الساخرة تُحلّق في مناطق لم تكن مطروقة.

المتابع لأعمال إميل حبيبي على مدار أعوام إبداعه كافّة، سيجد أن هذا الكاتب الفلسطيني الكبير لم يتخلّ عن أُسلوبه الذي ربّما بلغ ذروته في «المتشائل»، ومن خلاله شقّ طريقًا جديدة الجِدّة كلّها للرواية العربية، لا تزال تغري العديد من النُّقاد والدّارسين بالمزيد من البحث والتقصّي في أدبه المتكامل وأُسلوبه المخصوص.

رحل إميل حبيبي في الأول من أيار عام ١٩٩٦ عن ٧٥ عامًا (مواليد ٢٩ آب ١٩٢١). وخلال حياته العريضة ملأ الكثير من المواقع بجدارة لافتة. وفي جميعها ترك علامات فارقة على مسيرته، التي قد يوجز أحد جوانبها الأكثر إثارة العنوان الزخم: جدل الخصوصية والإبداع.

فقد كان أديبًا ومسرحيًا وكاتب مقالة وقائدًا سياسيًا وابنًا بارًّا لشعبه العربي الفلسطيني. كما كان العاشق الأكبر لمدينة حيفا – مسقط رأسه.

إبداعات إميل حبيبي في مختلف المضامير السالفة، التي يمكن من خلالها الاغتراف من مذاق الكينونة الفلسطينية عمومًا وفي الدّاخل خصوصًا، حافلة ضمن أشياء أُخرى بتوصيفات للمكان الذي عاش

تبدُّلاته في منعطفات المصير الإنساني. ومن الطبيعي أن تكون متَّصلة اتصالاً وثيقًا بمدينة حيفا، حيث اختار أن يرقد فيها رقدته الأبديّة داعيًا، في وصيّته الغنيّة بالدلالات، إلى نقش عبارة «باقٍ في حيفا» على شاهد قبره عند سفوح الكرمل وعلى مقربة من زرقة البحر.

حاز إميل حبيبي على جوائز عديدة عربية وعالمية، لعلّ أبرزها «وسام القدس» (١٩٩٠)، أرفع جائزة فلسطينية. وشارك في العديد من المؤتمرات والمهرجانات الثقافية العربية. واختير في ١٩٩١ بوصفه الكاتب الأهم في العالم العربي من قبل مجلة «المجلة» اللندنية. وكان عضوًا في الكنيست (البرلمان الإسرائيلي) عن الحزب الشيوعي في السنوات ١٩٥٣- ١٩٧٢، وتولّى رئاسة تحرير صحيفة «الاتحاد» في السنوات ١٩٤٤- ١٩٨٩، حيث عمل على إنجاز تحويلها إلى جريدة يوميّة. وقبل وفاته أسَّس «مشارف»، المجلة الثقافية العربية الصادرة في حيفا، سوية مع إنشاء «دار عربسك للنشر».

أهم كتبه الأدبيّة المنشورة: «سداسية الأيام الستة» (١٩٦٩)، «المتشائل» (١٩٧٤)، «لكع بن لكع» (١٩٨٠)، «إخطيّة» (١٩٨٥)، «سرايا بنت الغول» (١٩٩١)، و«أُم الروبابيكيا» (١٩٩٢)، و«سراج الغولة» النص الوصيّة المنشور بعد وفاته.

تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات بينها الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية، بالإضافة إلى اللغة العبرية.

رغم الكثير الذي كتب عن تجربته الأدبيّة، ما زالت هذه التّجربة تستقطب القرّاء والنُّقاد والباحثين العرب ومن العالم أجمع، بالتطويرات والتجديدات التي أدخلتها على الرواية العربية، وبالتوازيات التي أقامتها بين شخصيّاتها وشخصيّات روائية أُخرى في الرواية العالمية، وبما أضافته على أشكال السَّرد العربية التراثية بعد الاستفادة منها، وفوق ذلك كلّه بما أحدثته من أثر متميِّز وبصمة خاصة على الكتابة الأدبية العربية، شكلاً ومحتوىً.

إصدار آثاره الكاملة بعد عشر سنوات على رحيله يتيح لكل راغب إمكانية الإطلالة من جديد على العالم المدهش والممتع الذي بناه إميل حبيبي وظلّ يشكّل منارة تنير الدَّرب أمام الأجيال العربية وأمام الإنسانية جمعاء، بعد وفاته، كما كانت الحال في حياته.

(النّاشر)

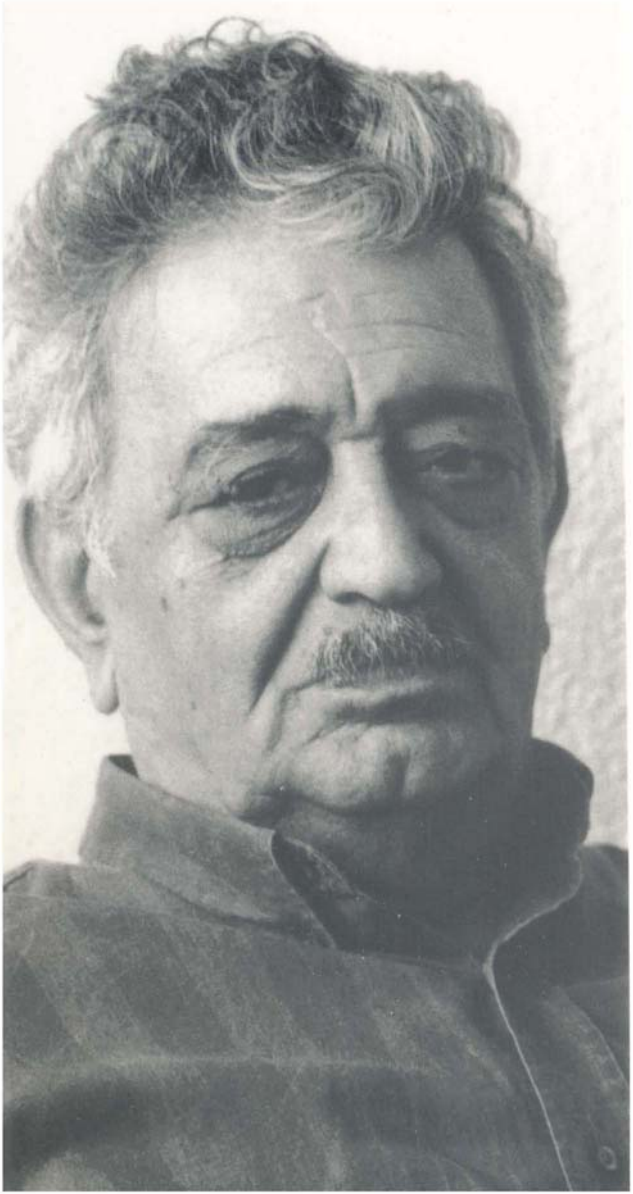

ISBN 965-7388-04-X